@Tafsircenter

مصطفى شاه
Mustafa Shah

إسهامات النحاة المبكّرة في جمع وتوثيق القراءات القرآنية

مدخل لكتاب السبعة لابن مجاهد

ترجمة: حسام صبري

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

نبذة تعريفية بمصطفى شاه:

مصطفى شاه، باحث بكلية الدراسات الشرقية والأفريقية (SOAS) بلندن، تتركز بحوثه بالأساس على النصوص الإسلامية المبكّرة، خصوصًا تطوّر التقاليد اللغوية والقراءات القرآنية والتفسير.

له عددٌ من المقالات البحثية المهمّة، كما شارك في بعض الكتب، وحرّر البعض الآخر، وكتب عددًا من عروض الكتب المهمّة.

من بين الكتب والدوريات المهمّة التي شارك في كتابتها:

(The Arabic Language..، اللغة العربية، ٢٠٠٨) ضمن (In: Rippin, A., ' (ed.), The Islamic World. New York; London: Routledge, pp. ٢٦١-٢٧٧، العالم الإسلامي، التي يشرف عليها المستشرق الكندي أندرو ريبين).

من بين الكتب التي قام بتحريرها:

كتاب (Tafsir: Interpreting the Qur'an ، التفسير: تفسير القرآن، ٢٠١٣) ضمن (Critical Concepts in Islamic Studies. London: Routledg ، مفاهيم نقدية في الدراسات الإسلامية).

ومقالته التي نقدم ترجمتها هنا:

(he Early Arabic Grammarians' Contributions to the Collection and Authentication of Qur'anic Readings: The Prelude to Ibn Mujahid's Kitab al-Sab'a).

هي من أهم مقالاته البحثية في دراسة العلاقة بين تطوّر النحو العربي وتطور القراءات القرآنية.

مقدمة[1]:

تنطلق هذه المقالة لمصطفى شاه -الباحث في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن- من فكرة مركزية وهي ضرورة استحضار (شعائرية) النصّ القرآني كمرتكز رئيس في تتبّع تاريخ القراءات القرآنية وجمعها وتوثيقها واعتمادها.

حيث يُحَاجج شاه بأنّ اعتمادَ عددٍ معيَّن من القراءات وفقًا لعددٍ من المحددات الرئيسة: موافقة العربية، موافقة رسم المصحف العثماني، أن تصح بسند؛ لم يَقُم رغبةً في التوحيد الذي شمل كلّ مناحي الثقافة والعلوم في هذه الفترة من التاريخ الإسلامي فحسب، بل إنه قام على أساس الجدال في هذه المحدّدات نفسها، خصوصًا بين النحويين والقرّاء الّذَيْنِ كانا في طور تأسيس علومهما في هذه الفترة، حيث حضر الإصرار على صحة القراءة بسند، في محاولة لإيقاف التخمين النحوي الذي كان أحيانًا يتجاوز الحدّ في تخمينه فيبعد عن ما يحتمله المصحف العثماني أو ما يرد في الروايات.

---

(١) قام بكتابة المقدمة، وكذا التعريف بالأعلام وكتابة الحواشي والتعليقات الواردة في نصّ الترجمة، مسؤولو قسم الترجمات في موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، وقد ميّزنا حواشينا عن حواشي شاه بأنْ نصصنا بعدها بـ(قسم الترجمات)، وقد وضع شاه الحواشي في ختام الدراسة، لكننا آثرنا تضمينها في الدراسة تيسيرًا على القارئ حتى يتمكن من تتبع مراد المؤلف.

واعتماد شاه فكرة (شعائرية القرآن) هو ما يخوِّل له تأكيد كون مبدأ صحة القراءة سندًا هو مبدأ فاعل وقديم في تناقل القراءات؛ حيث يحضر القرآن مرتلًا في الصلوات ومرتلًا في ذاته كشعيرة، وهذا ذاته ما جعل إشكالَا الابتعاد عن الرواية، وفتح الباب لتخمينات اللغويين؛ وهو ما يمكِّن شاه من بلورة تصوّر خاصّ عن خلافات القرّاء والنحويين في هذه الفترة، التي عرفت خلافات القراء الكبار مثل: ابن مجاهد، وابن شنبوذ، وابن مقسم العطار.

ففي سياق هذه الرؤية يقدّم مصطفى شاه تسييقًا مختلفًا لكتاب السبعة لابن مجاهد، وعلاقة ابن مجاهد بابن شنبوذ وابن مقسم، حيث يرفض شاه الرؤية السائدة عن كون هذا الكتاب كُتِب بغرض توحيد القراءات، أو أن السند منه كان محاولة (جديدة) لفرض سياج حول القرآن وقراءاته، ويرى أن (السبعة) كُتِب رغبةً في توثيق القراءات المتوافقة على الشروط الثلاثة المعروفة سلفًا والمعتمدة بشكلٍ مختلفٍ عند بقية القراء، من هنا فإنّ قراءات مثل: ابن شنبوذ، وابن مقسم العطار، لم تكن قراءات ضد رغبةٍ في التوحيد يشايعها ابن مجاهد، وإنما هي قراءات تعتمد معايير مغايرة ذات صلة بخلافات النحويين والقرّاء.

إنّ اختيار هذه المادة لتكون ضمن ملف (تاريخ القرآن) على قسم الترجمات، غرضه عرض قراءات ذات طرافة وجِدَة لمرحلة مهمّة في تاريخ المصحف هي مرحلة اعتماد القراءات، كما أن اعتماد شاه على مفهوم شعائرية القرآن في تحليله يعطي مزيّة لمقالته عن غيرها من مقالات تغرق -أثناء مناقشة

هذه المرحلة من تاريخ المصحف- في جدل تاريخي يحجب (طبيعة القرآن) وأثرها الرئيس في جهود الأمة التاريخية في حفظ هذا النصّ الأزلي، كما تأتي هذه الدراسة في مواجهة الكثير من الآراء الاستشراقية المعتادة والتي تحاول مقارنة تاريخ القرآن بتاريخ الكتب التوحيدية الأخرى (التوراة، الإنجيل)؛ حين تصرّ على جعل المصحف بقراءاته المعروفة قد فرض عبر مجموعة من الإجراءات السلطوية المتعاقبة، وهو ما تدحضه مقالة شاه بكشفها الطبيعة المعرفية الدقيقة للخلافات بين القرّاء وكذلك الطبيعة المعرفية لعملية حسمها.

الدراسة

عند إنعام النظر في تاريخ نشأة علم اللغة العربية تتجلى للناظر عدّة خصائص مبهرة من حيث شكل علوم اللغة ووظيفتها وتكوينها، ومن أبرز هذه الخصائص ذلك التطور السريع الذي لحقها واتسم -رغم سرعته- بطبيعة دقيقة صقلت هذه العلوم. ومع ذلك فإنّ من أبرز الجوانب المدهشة لهذه الخصائص ما يتّصل بالنحاة الروّاد الذين كانوا في الأصل أفرادًا على قَدْر عالٍ من الشهرة، وهي شهرة لم تنبثق فقط من دورهم كأعلام حملوا على عاتقهم مهمّة التجريد اللغوي، وإنما باعتبارهم قرّاء للقرآن قدَّموا نماذج راقية لحفظ النصّ الإسلامي المقدّس ممثلًا في القرآن[1].

(١) انظر منشوراتي السابقة، ومنها مقالة بعنوان: Exploring the Genesis of Early Arabic Linguistic Thought: Qur'anic Readers and Grammarians of the Kufan Tradition، الجزء الأول، مجلة الدراسات القرآنية، المجلد الخامس، العدد ١ (٢٠٠٣)، ص٤٧ – ٧٨، والجزء الثاني في العدد الثاني من المجلد الخامس (٢٠٠٣)، ص١ – ٤٧. انظر أيضًا: Andrew Rippin (ed.), The Qur'an: Style and Contents (Aldershot: Variorum, ٢٠٠١) وبخاصة مقالات جراهام، وأنجيليكا نويفرت، وانظر تعقيبي على مقالة أندرو ريبين بعنوان: The Qur'an: Formative Interpretation في مجلة الدراسات القرآنية، المجلد الخامس، العدد الثاني (٢٠٠٣) ص١٣٤ – ١٥٢.

وفي ضوء الأهمية الشعائرية للقرآن[١]، التي امتدت لمختلف الموضوعات اللاهوتية والشرعية والوعظية، استلزمت هذه المهمّة تمحيصًا لغويًّا ودقّة بالغة[٢]. ولا شك أنّ العناية اليقِظة بالتفاصيل في تحقيق النصّ القرآني والتأكد من

(١) يشير الكاتب هنا إلى تصوّر المستشرقة الألمانية أنجيليكا نويفرت عن كون القرآن كتابًا شعائريًّا، أو كتابًا طقسيًّا، (كتاب أدعية بامتياز)، وظننا أن هذا المفهوم يحتاج للتوضيح حيث تختلف دلالاته التي تحضر في المقالة عن الدلالة التي تقصد إليها نويفرت، فحديث نويفرت يحيل إلى كون القرآن كتابًا كانت وظيفته الأولى أن يكون كتاب أدعية يستخدم في الصلوات، وهو ما يتلاقى مع طروحات لولينغ في كتابه (حول القرآن الأصلي) وكريستوف لكسنبرج في (قراءة أرامية سيريانية للقرآن) ولو قليلًا، عن كتاب أدعية مسيحي شكّل مرحلة من مراحل تطوّر القرآن أو طبقة أعمق من طبقاته تبعتها مراحل تحرير وتنقيح وأسلمة للنصّ في سياق انفصال الأمة الناشئة بهوية خاصّة.

وبالطبع ثمة اعتراضات من بعض المستشرقين على هذا الطرح، حيث يؤكدون كون القرآن ليس كتابًا ليتورجيًّا بالمعنى المسيحي بحال، بمعنى أنه لا يُقرأ في مناسبات محددة بتقاطيع محددة. لكن الإشكال الأكبر في هذا التصور من وجهة نظرنا، هو كونه أصلًا يتجاهل الأوصاف الأخرى التي يعطيها القرآن لنفسه ككتاب هدى وحجة وبيان، وهو ما يعني عدم انحصاره في كونه كتابًا شعائريًّا بأيّ معنى. لكن هذا لا يعارض شعائرية القرآن بمعنى أنه، وإلى جانب كونه بيانًا وهدى وحجة، فهو كتاب تعبّد، أي: إنّ تلاوته ذاته هي فعل تعبّد من حيث هو كلمة الله، بل إنّ هذه المعاني للقرآن كبيان وهدى تحضر في التلقي الشعائري له، بمعنى استحضار كون قارئه يصغي لكلام الله. ولعلّ الدلالة المقصودة لشاه هنا هي أن القرآن كتابٌ يتعبّد به يوميًّا وفي كلّ صلاة؛ مما يعني أنّ التناقل الشفهي للنصّ مَثَّل أساسًا رئيسًا في وضع معايير صحة قراءته لاحقًا كما يحاول هو أن يستدل، (قسم الترجمات).

(٢) انظر الخلاصة التي كتبَتْها أنجيليكا نويفرت عن الدور الشعائري والديني للقرآن من حيث شكل النصّ وبنيته في مقالة لها بعنوان: 'Form and Structure of the Qur'an' في الموسوعة القرآنية (ليدن: بريل، ٢٠٠٢) الجزء الثاني، ص٢٤٥- ٢٦٦، وانظر أيضًا:

=

سلامته على النّحو الذي تجلَّى في القراءات القرآنية كان عاملًا محفّزًا شَحَذَ الفكر اللغوي العربي، وأدى إلى التوسّع في هذا الحقل المعرفي، في ظلّ سعي القرّاء إلى ربط الظاهرة اللغوية المتأصّلة في القراءات المختلفة بنظرية لغوية متينة ومتماسكة. ومن وسط القرّاء برز هؤلاء الذين اضطلعوا بمهمّة نشر أُولَى نماذج التحليل اللغوي المجردة وتطويرها، وأصبحوا مع تلامذتهم فئة متمايزة من المتخصصين في اللغة، وجاءت جهودهم في التمحيص والدراسة لتمهّد الطريق أمام ظهور مدرستين من المدارس اللغوية العريقة، هما: مدرسة البصريين، والكوفيين. وبعد ذلك تحولت هاتان المدرستان إلى تبني منهج منفصل على ما يبدو في دراسة ظاهرة اللغة؛ وقد عكسَ التطوّر الفني في الشّكل والمضمون لدى كلّ مدرسة ذلك التحوّل في التركيز والتطبيق، وأصبح النحاة والقراء فريقين متمايزين، وظهر ذلك التمايز جليًّا في اختلاف البوصلة المفاهيمية لاهتمامات كلّ فريق ومساعيه.

وإذا كانت لغة القرآن قد حظيت بأهمية بالغة لدى النحاة والقرّاء على حدّ سواء باعتبارها مصدرًا قدسيًّا لا سبيل إلى المساس به؛ فإنّ قضية التعامل مع

=

'Referentiality and Textuality in Surat al-Hijr. Some Observations on the Qur'anic Canonical Process and the Emergence of a Community' in Issa J. BouUata (ed.). *Literary Structures of Religious Meaning in the Qur'an* (Richmond, Surrey: Curzon Press, ٢٠٠٠), pp. ١٤٣-٧٢.

توثيق البناء اللغوي للقراءات -على ما فيها من تنوع دقيق- كانت محلّ خلاف كبير. وقد استقرّ لدى القرّاء أنّ القراءات القرآنية وما اشتملت عليه من تراكيب لغوية جاءت عبر روايات ثابتة مستقرة، في حين أنّ النحاة -مع قبولهم بهذا المبدأ العام- حرصوا على الإفادة من الاعتبارات النظرية والتراثية في تحقيق القول في القراءات وتوثيقها، وتمحيص النماذج النحوية في دراسة وتقييم التراكيب اللغوية المتأصّلة في قلب القراءات القرآنية، علاوة على بيان الإعجاز اللغوي في البيان القرآني.

وكان من نتائج هذا المنهج النظري الجرأة على اقتحام حرم التصورات الفرضية والظنية لهذه القراءات. ورغم الاضطلاع بهذا الأمر في سياق التعليل اللغوي، إلا أنه خلّف أثرًا لا ينمحي على جهود جمع وتوثيق القراءات على مرّ القرون التالية.

وقد سعى عددٌ من النحاة الأوائل إلى النأي بأنفسهم عمن سبقوهم، فحاولوا التقليل من دور أوائل القراء في تكوين الفكر اللغوي، ومن إسهاماتهم المتواصلة في الفكر اللغوي، وكان دافعهم لذلك واضحًا جليًّا؛ فمن ناحيةٍ يمكنهم إضفاء مشروعية على أفعالهم عبر إثارة التساؤلات حول قدرة القراء وملكاتهم اللغوية

ومدى اعتبارهم حجة في معرفة قراءات النصّ القرآني[1]. ومن ناحيةٍ أخرى يكون لديهم مجال للمضيّ قُدُمًا في فرض آرائهم حول الخصائص اللغوية للقراءات التي تشذُّ عن نظرياتهم في اللغة والنحو فيسهل بذلك اطراحها والخلاص منها.

وقد سعى النحاة إلى بسط سلطانهم ليتعدى العلوم اللغوية إلى علم القراءات، لكن هذه المساعي قوبلت بمعارضة حثيثة؛ ونجَم عن ذلك صراع ممتد، وجاءت هذه الظروف لتمهد الطريق وتدفع ابن مجاهد (٢٤٥- ٣٢٤هـ) إلى وضع كتاب يبيّن فيه القراءات السبع المعتمدة ونسبتها إلى قارئيها، ولن نجافي المنطق إذا قلنا بأن أيّ محاولة لتحديد أهمية كتاب السبعة لابن مجاهد في وضعه ومحتواه لا بد لها أن تراعي هذه العوامل التي أدت إلى نشأة علم اللغة العربية وتمايز مدرستي القرّاء والنحاة[2]، وقد جاء الكتاب ليجسّد اتساع نطاق المواجهة التي اندلعت في السنوات الأولى لنشأة علم اللغة العربية واستمرت خلال الحقبة التراثية من التاريخ الإسلامي.

القرنان التاسع والعاشر في التراث الإسلامي: عصر الاستقطاب والتوحيد:

(١) انظر: عبد السلام مكرم وأحمد مختار عمر، معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء (٨ أجزاء، الكويت، ذات السلاسل، ١٩٨٢- ١٩٨٥) للوقوف على خلاصة عامّة لموضوع القراءات والقراء.

(٢) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، الطبعة الثانية (القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

دأب الكتّاب المعاصرون من الباحثين في تاريخ التطوّر الفكري للتراث الإسلامي إلى اعتبار القرنين التاسع والعاشر فترة غلب فيها الاتجاه نحو التجانس والتوحيد على طريقة تعاطي الأقدمين مع المعارف الإسلامية، واتضحت إبّان هذه الحقبة التاريخية ملامح الطريقة السنّية وتمايزت في شكلها ووظيفتها[1]، وقد جاء هذا الانطباع على ما يبدو نتيجة لتصورات معيّنة حول الطابع العام للأدب والفكر خلال هذه المرحلة الزمنية في ضوء فرضية أساسية ترى تحولًا بارزًا يتجلّى في العلوم المختلفة، مثل: القراءات، وعلم الحديث والفقه، وعلم الكلام، والنحو، والتفسير، ينحو بها إلى توحيد المفاهيم والعقائد واستقرارها.

(١) انظر: مونتجمري وات، The Formative Period of Islamic Thought (Oxford: Oneworld Publications, ١٩٩٨، أعيدت طباعته من طبعة ١٩٧٣، ص٢٥٣- ٢٧٨، وفيه يرى أن ظهور قطب مجابه للشيعة جعل طريقة أهل السنة هي الإسلام. انظر له أيضًا:

Islamic Philosophy and Theology (Edinburgh: Edinburgh University Press, ١٩٨٧), pp. ٥٦-٦٣؛

وانظر: Introduction to the Qur'an وهو في الأصل كتاب من تأليف ريتشارد بيل، علّق عليه مونتجمري وات (إدنبرة، مطبعة جامعة إدنبرة، ١٩٨٧) ص٤٨- ٥٠؛ وختامًا انظر أيضًا: جورج مقدسي،

The Rise of Colleges. Institutions of Learning in Islam and the West (Edinburgh: Edinburgh University Press, .١٩٨٢).

وتأتي دراسة مونتجمري وات[1] لهذه الحقبة التأسيسية في تاريخ الفكر الإسلامي لتشير إلى ملامح بارزة من التدوين والاستقرار لتوضّح بذلك نضوج الفكر السُّنّي على نحو ما تجلَّى عبر مزيج من الطرق العقلية والنقلية، ويشير مونتجمري وات على وجه الخصوص إلى حقيقة الوصول لإجماع عامّ حول المرويّات في متون السنة النبوية؛ ويرى أنّ التوسّع والوضوح في الآراء الفقهية قد تأتَّى عبر هذه المرويات، وشهدت هذه الحقبة تأسيس المذاهب الفقهية.

ويرى مونتجمري وات أنّ نشأة علم أصول الفقه ساعدت في زيادة التقدير المتبادل بين مختلف التخصصات العلمية، وفي معرض تناوله للعلوم القرآنية التي يقرّ بأنها حظيت بنوع من الاستقرار التاريخي يستعرض وات علم القراءات

(١) مونتجمري وات (١٩٠٩- ٢٠٠٦) كاهن إنجليكاني ومستشرق بريطاني، أستاذ الدراسات العربية والاسلامية بجامعة إدنبرة بإسكتلندا إلى تقاعده عام ١٩٧٩، من أهم المستشرقين المعاصرين في مجال تاريخ الدعوة والسيرة النبوية، ومن أشهر كتبه في السيرة؛ محمد في مكة (١٩٥٣)، محمد في المدينة (١٩٥٦)، والإسلام واندماج المجتمع (١٩٩٨). والثلاثة مترجمون للعربية؛ فقد ترجم الأول عبد الرحمن الشيخ، وصدر عن الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩٤، وترجم الثاني شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٥، وترجم الثالث علي عباس مراد، وصدر عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، وكذلك ترجم كتابه (*Muslim-Christian Encounters: Perceptions and Misperceptions, ١٩٩١*) بعنوان (الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر)، ترجمه: عبد الرحمن الشيخ، وصدر عن الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٩٨. (قسم الترجمات).

موضحًا الخلفية التاريخية لقراءات النصّ القرآني ومناهج التعاطي معه[١]. وهذا الجانب تحديدًا من دراسة وات هو ما يتصل بموضوع دراستنا؛ إذ يتعلق بمشروع القارئ العلّامة ابن مجاهد، وبناء على فكرة التوحيد والاستقرار، يقترح وات أن القرن التاسع الهجري شهد تجسيدًا حقيقيًّا للرغبة في توحيد القراءات القرآنية وانتظامها عبر جهود ابن مجاهد الذي انطلق في رسم معالم هذا العلم وفق ما تواتر[٢].

وهذه الجهود الرامية إلى تعزيز القراءات السبع المتواترة واقترانها بحقيقة ما اضطلع به ابن مجاهد من دور بارز في الإنكار على ابن مقسم (٢٦٥- ٣٥٤) وابن شنبوذ (ت: ٣٢٨) اللذَيْنِ أَصَرَّا على التقيّد بنهج خاصّ في القراءات يخالف ما كان عليه العمل، تعطي انطباعًا بأن تلك الحقبة الزمنية اتّسمت بتحول عامّ نحو التوحيد والتجانس، ومع ذلك فإنّ هذه النظرة تسيء فهم طبيعة عمل هذين القارئين؛ كما أنها تسلّم بأنّ مساعيهما كانت مقبولة على نحو ما في إطار ما كان عليه الحال في القراءات قبل هذه الحقبة الزمنية، وفي الحقيقة فإنّ

(١) Montgomery Watt, The Formative Period of Islamic Thought, pp. ٢٦١-٢.

وقد وافقه على هذا الرأي مايكل كوك في كتابه:

The Koran, A Very Short Introduction (Oxford: Oxford University Press, ٢٠٠٠) في صفحة ٧٣ وما بعدها. وقد وُصف بأن له الفضل في وضع الأمور في نصابها في هذا الحقل باختياره القراءات السبع. وإن كان هذا الرأي يكاد يغفل الجهود التي سبقت ابن مجاهد.

(٢) Montgomery Watt, The Formative Period of Islamic Thought, p. ٢٦٢.

ابن مجاهد سعى فقط إلى التأكيد على المسلَّمات التي استُقِرّ عليها في باب القراءات استنادًا إلى اعتقاد قائم بأن الظواهر اللغوية المتأصّلة في القراءات القرآنية هي تجلٍّ لأسانيد مستقرّة محدّدة سار عليها السلف، ولم يكن مدار الأمر على تقييد القراءات، بل إنّ السياق والاتجاه المعارض لمحاولة ابن مجاهد قد توطّد -كما نبيّن لاحقًا- عبر تطورات وظروف مختلفة تمامًا، تمثلت في الديناميكية الداخلية لعلم اللغة العربية وعلاقته بعلم القراءات.

إنّ تداعيات بعض الأحداث التي وقعت لابن مجاهد قد تجلت بشكل غير مباشر في رؤية جورج مقدسي[١] لنشأة أصول الفقه[٢]. وقد عُني مقدسي في الأصل برسالة

---

(١) جورج مقدسي (١٩٢٠- ٢٠٠٢)، هو خريج السوربون درس اللغة العربية في جامعات عديدة منها ميتشغان وهارفرد، ومنذ ١٩٧٣ كان أستاذًا فخريًّا للدراسات الإسلامية بجامعة بنسلفانيا، إلى تقاعده في ١٩٩٠.

من أهم كتبه:

The rise of colleges، ١٩٨١، وقد ترجم للعربية بعنوان (نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب)، ترجمه: محمود سيد محمد، وصدر عن مدارات للنشر، القاهرة، ٢٠١٥.

The rise of humanism in classical Islam and the Christian West، نشأة الإنسانوية في الإسلام الكلاسيكي وفي الغرب المسيحي، ١٩٩٠).

كما حقق ونشر كتاب الواضح في أصول الفقه لأبي الوفاء علي بن عقيل، وصدر عام ١٩٩٦، في ضمن (النشرات الإسلامية) التي أصدرها المعهد الألماني للدراسات الشرقية ببيروت. (قسم الترجمات).

(٢) George Makdisi, 'The Juridical Theology of Shafi'i: Origins and Significance of Usul alfiqh',

=

الشافعي باعتبارها ترياقًا يقي من الفلسفة الكلامية العقلية للمعتزلة، تبرز الحلقة الانتقالية في المحاولات المتعاقبة لوضع أصول للشريعة الإسلامية[١]، وقد سعى مقدسي لبيان السبب في أنّ أصول الفقه السُّني في مراحل متأخّرة قد مزج بين المباحث الكلامية والقواعد الشرعية، وقد حدّد ثلاثة أحداث رئيسة جسدت انتصار مدرسة الأثر النقلية على العقلية، **أولها**: المحنة التي وقف فيها أحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١) في وجه المعتزلة وقولهم بخلق القرآن. **وثانيها**: تحوّل أبي الحسن الأشعري (٢٦٠- ٣٢٤) إلى معسكر مدرسة الأثر ورجوعه عن مذهب الاعتزال. **وثالثها**: ما فعله الخليفة العباسي القادر (تولى الخلافة سنة ٣٨١ حتى ٤٢٢) من نشر العقيدة القادرية سنة ٤٠٩ هجرية، وهو ما اعتبره البعض محاولة لكبح جماح المدرسة الأشعرية التي انبعثت من جديد وراحت تطلّ برأسها[٢].

=

Studia Islamica ٥٩ (١٩٨٤), pp. ٥-٤٧; cf. Wael Hallaq, 'Was al-Shafi the Master Architect of Islamic Jurisprudence', International Journal of Middle Eastern Studies ٢٥ (١٩٩٣), pp. ٥٨٧-٦٠٥.

(١) George Makdisi, Studia Islamica ٥٩, p. ١٢; cf. George Makdisi, 'Ash'ar and the Ash'arites in Islamic Religious History', Studia Islamica ١٧ (١٩٦٢), pp. ٣٧-٨٠, and Studia Islamica ١٨ (١٩٦٣), pp. ١٩-٣٩.
وقد أتى ريتشارد فرانكس برأي مخالف في مقالة له بعنوان:
Elements in the Development of the Teaching of al-Ash'ari', *Le Museon: Revue D'Etudes Orientates* ١٠٤ (١٩٩١), pp. ١٤١-٩٠.

(٢) Makdisi, Studia Islamica ٥٩, pp. ١٨-٢٢; cf. Watt, Islamic Philosophy and Theology, p. ١٠٠.

وفي معرض تناول جورج مقدسي لتحوّل الأشعري عن مذهب الاعتزال نجده يشير إلى محنة القارئ ابن شنبوذ الذي انتهج مبدأ الاختيار في القراءات القرآنية ولاقى معارضة شديدة من ابن مجاهد. ويرى أن ابن شنبوذ لم يكن ليُضطر إلى الرجوع عن قوله في القراءات لو أن المعتزلة نجحت في فرض عقيدة خلق القرآن قبل قرن من الزمان، وأنّ هذا انعكاس للإخفاق الذي لحقهم في المحنة[١].

ومع ذلك، رغم أنّ الحادثة محلّ الكلام تعكس مواجهة مفحمة بين مدرستي النقل والعقل، فإنّ مساعي ابن شنبوذ تعود في أصولها لظروف مختلفة تمامًا؛ إِذْ تشكّلت في إطار التطورات التي شهدها علم اللغة الغربية، أما العلاقة الكلامية التي يفترضها مقدسي فلم يكن لها أدنى أثر حقيقي على هذا الأمر برمّته.

وظلّت الأحداث التي أحاطت بمشروع ابن مجاهد -على نحوٍ مضلّل- مؤشرًا على اتجاهات التّوفيق والتوحيد المفترضة في علم الكلام والنحو والفقه، ومن المثير للاهتمام أن تأتي نظرية جوناثان أوينز[٢] في دراسة النحو

(١) Makdisi, Studia Islamica ٥٩, p. ١٩.

(٢) جوناثان أوينز، مستشرق ألماني، مختص في قواعد اللغة العربية، له بالإنجليزية عدد من الكتب حول قواعد العربية، أهمها: The Foundations of Grammar: An Introduction to Medieval Arabic Grammatical Theory. Amsterdam/Philadelphia: John Benjamins Publishing Co. ١٩٨٨).

العربي لتفترض أن تبلور المدارس النحوية قد وقع في نهاية القرن التاسع، وتلمّح إلى تزامن ظهور أول كتاب لابن مجاهد يستعرض بوضوح القراءات السبع مع هذه الحقبة التي شهدت استقرار الوجوه النحوية[١]. ووفق هذه النظرية فإنّ التحركات الملحوظة نحو صياغة النّحو في صورة رسمية قد تزامنت مع الاتجاهات الرّامية لتوحيد القراءات القرآنية، ومع ذلك فإنّ المقابلات النموذجية المقترحة بشأن مساعي ابن مجاهد في جميع الأمثلة السابقة تبدو متسرّعة، فهي افتراض حول أهمية جهود هذا العالم واعتباره النظير لعمليات معقّدة من التوحيد والتجانس لا تؤيّده الحقائق التاريخية.

ولا شك أنّ إعادة تقييم الدور السياسي والديني للمعتزلة إبّان المحنة والجدل حول طبيعة القرآن على يد علماء مثل ولفرد مادلنج[٢] وجوزيف فان

---

(١) Jonathan Owens, *Early Arabic Grammatical Theory: Heterogeneity and Standardization*, Amsterdam Studies in the Theory and History of Linguistic Science (Amsterdam: John Benjamin BV, ١٩٩٠), pp. ٥-٦ & p. ٢١٩, وخاصة رقم ١٥ التي يتحدث فيها أوينز عن الفترة من ٨٩٠ إلى ٩٣٠ باعتبارها فترة استقرار النحو العربي واتخاذه الصورة التي بقي عليها من حيث الجوهر حتى يومنا هذا، (ص٢١٩).

(٢) ولفرد مادلنج (١٩٣٠-) مستشرق ألماني، هو أستاذ اللغة العربية في جامعة أكسفورد منذ ١٩٧٨ وإلى ١٩٩٨، مهتم بالأساس بتاريخ الإسلام المبكّر وتاريخ الفِرَق والطوائف الإسلامية، ويعمل الآن كباحث في معهد الدراسات الإسماعيلية بلندن، من كتبه:

Religious and Ethnic Movements in Medieval Islam) ، الحركات الدينية والإثنية في الإسلام الوسيط، ١٩٩٢)، the Succession to Muḥammad، خلافة محمد، ١٩٩٦)، =

إس[١] معناه أن هذا التضاد الكلامي بين المعتزلة وأهل السنة أصبح ظاهرة معقدة على نحو لا يمكن إنكاره[٢]. كما أن بروز كبار فقهاء الحنفية خلال هذه

=

(Studies in Medieval Shi'ism، دراسات في التشيّع في العصور الوسطى، ٢٠١٢). (قسم الترجمات).

(١) جوزيف فان إس (١٩٤٣-) مستشرق ألماني، اهتماماته الرئيسة تتركز في الفقه وتاريخ الفكر الإسلامي، حاصل على الدكتوراه من جامعة بون، وكانت رسالته عن التصوّف الإسلامي، أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة توبنغن منذ ١٩٦٨ وإلى تقاعده عام ١٩٩٩، وكانت رسالته لنيل الأستاذية حول نظرية المعرفة الإسلامية، عمل كأستاذ زائر في بعض الجامعات، مثل جامعة كاليفورنيا، والجامعة الأمريكية ببيروت.

من أهم كتبه: كتابه المترجم إلى العربية (علم الكلام والمجتمع في القرن الثاني والثالث للهجرة)، ترجمه: سالمة صالح، وصدر عن دار الجمل، كولونيا (ألمانيا)، بغداد، ط١، ٢٠٠٨. وهو عبارة عن الجزء الأول والثاني من كتاب عن تاريخ الفكر الديني في الإسلام والواقع في خمسة أجزاء، وقد كتب في عام ٢٠٠٦ كتابًا بعنوان (The Flowering of Muslim Theology)، ازدهار علم الكلام الإسلامي كتلخيص للأجزاء الخمسة. (قسم الترجمات).

(٢) Wilferd Madelung, 'The Origins of the Controversy Concerning the Creation of the Qur'an' in Felix M. Pareja Casafias (ed.), *Orientalia Hispanica: sive studia FM, Pareja octogenaria dicata* (Leiden: E.J. Brill, ١٩٧٤).

وأعيدت طباعته في Wilferd Madelung, Religious Schools and Sects in Medieval Islam (Aldershot: Variorum, ١٩٨٥). Joseph van Ess, 'Mu'tazila' in Encyclopedia of Religion (New York: ١٩٨٧), vol. ١٠, pp. ٢٢-٩.

وانظر أيضًا:

Michael Cooperson, *Classical Arabic Biography: The Heirs of the Prophet in the Age of al-Ma'mun* (Cambridge: Cambridge University Press, ٢٠٠٠).

القضية علاوة على اختياراتهم الكلامية كان سببًا في كثرة الكلام حول طبيعة القوى الفكرية التي كان لها كبير الأثر في صياغة الفكر السُّنّي. وأدى هذا بدوره إلى جدل بشأن طبيعة السلطة السياسية والدينية في قلب الخلافة العباسية في نشأتها الأولى[١].

وقد اعتمد كريستوفر ميلشرت[٢] في تكوين وجهة نظره على إعادة تقييم تلك الاختيارات المذهبيّة وخصائص المدارس الكلامية في القرن التاسع، ورأى أن ثمة تمييز جديد لهوية المذاهب الكلامية الرئيسة المتعارضة[٣]. وبنى رأيه على العلاقة بين أحمد بن حنبل وخصومه المفترضين. ويرى تبلور ثلاثة مذاهب

---

(١) انظر ما كتبه مارتن هيندز عن كلمة محنة في موسوعة الإسلام (*Encyclopaedia of Islam*)، وانظر أيضًا: Qasim Zaman, *Religion and Politics under the Early 'Abbasids* (Leiden: E.J. Brill, ١٩٩٧).

(٢) كريستوفر ميلشرت، باحث أميركي معاصر في التراث الإسلامي، متخصص في المؤسسات والحركات الإسلامية، محاضر في اللغة العربية بالمعهد الشرقي بجامعة أكسفورد.

حصل ميلشرت على الدكتوراه عام ١٩٩٢، من جامعة بنسلفانيا، عن رسالة بعنوان (The Formation of the Sunni Schools of Law, ٩th-١٠th Centuries C.E.، تشكيل المدارس السُّنيّة في القانون في القرنين التاسع والعاشر، ١٩٩٧).

له حول التاريخ الإسلامي كتابان مهمان، Ahmad Ibn Hanbal، أحمد بن حنبل، ٢٠٠٦، وHadith, Piety, and Law: Selected Studies، الحديث، التقوى، والقانون، دراسات مختارة، ٢٠١٨). (قسم الترجمات).

(٣) Christopher Melchert, "The Adversaries of Ahmad Ibn Hanbal', *Arabica* ٤٦ (١٩٩٧), pp. ٢٣٤-٥٣, p. ٢٣٤.

رئيسة في القرن التاسع، هي: أهل الحديث (ويضم هذا المذهب شخصيات مثل أحمد بن حنبل)، وأهل الرأي (المعتزلة وكثير من فقهاء الحنفية)، وفريق ثالث أشبه بأهل الرأي (وهم من أهل الأثر ممن ينتمون إلى المذهب الشافعي والمالكي لكنهم انخرطوا في علم الكلام الدفاعي).

ووفقًا لهذه الفرضية فإنّ أهل الحديث كرهوا أيّ شكل من أشكال الجدل ولم يقبلوا سوى القرآن والسنة مصدرًا لفهم الدين القويم بجميع نواحيه، وفي المقابل فإنّ الفريق الأشبه بأهل الرأي قد انخرطوا في الكلام وجاءت قواعدهم الفقهية مبنيّة على أساس عقلي في تناول المصادر التراثية، ومن أبرز أنصار هذا المذهب الحسين الكرابيسي (ت: ٢٤٨)، وأبو ثور (ت: ٢٤٠)، والحارث المحاسبي (ت: ٢٤٣)، وداود بن خلف الظاهري (ت: ٢٧٠)، والمزني (ت: ٢٦٤)، والطبري (ت: ٣١٠)، بل والشافعي (ت: ٢٠٤).

ومن الأهمية بمكان لموضوع دراستنا أن ابن مجاهد يمثّل حلقة الوصل المحتملة في فرضية ميلشرت حول منهج المدرسة الشبيهة بأهل الرأي في تناولهم لمسألة التصنيف التراثي للقراءات القرآنية[١].

ومع ذلك فإنّ ميلشرت لم يبيّن بشكلٍ كاملٍ التطوّرات التي أدّت إلى تصنيف القُرّاء والقراءات في تناوله لأحداث القرنين التاسع والعاشر، كما لا يتضح دور

(١) Melchert, *Arabica* ٤٦, pp. ٢٥If.

الاحتكاك بين مدرسة الرأي والشبيهة بها في هذا الصدد، وعلاوة على ذلك فإنّ كثيرًا من تصنيف ميلشرت يستند إلى روايات مقصورة على كتب السِّيَر والتراجم المتأخّرة وهي نصوص تتجلَّى فيها وظيفة الجمع والتدوين، ويقرّ ميلشرت أنه لا توجد في المصادر الرئيسة مادة تشير إلى المدرسة الشبيهة بأهل الرأي باعتبارهم مذهبًا متفردًا بذاته، وعلاوة على ذلك فإنه يقسّم العلماءَ واتجاهاتهم العلمية إلى فئات متقابلة متعارضة بما يخدم تصنيفه الخاصّ، دون أن ينهض على هذا دليل قاطع من مصدر أصيل يعود لهذه الحقبة الزمنية محلّ الدراسة.

وفي دراسة أخرى منفصلة، لكنها متصلة من حيث الموضوع، يواصل ميلشرت الدّفع بوجهة نظره حول تصنيف الاتجاهات العلمية إلى مدرسة النقل في مقابل المدرسة الشبيهة بأهل الرأي، ويحاول في هذه الدراسة تقييم أهمية جهود ابن مجاهد في توحيد القراءات السبع، وينطلق ميلشرت من هذه الفرضية في تسليط الضوء على المنهج التراثي في التعامل مع علم القراءات وانتشارها، متخذًا من تدوين الحديث وروايته نظيرًا يفيد منه في فرضيته، ويقارن ويقابل بين المناهج المختلفة في تمحيص النصوص ذات الصلة في ضوء الوسائل الشفهية والكتابية في نقل هذه المواد والحفاظ عليها من الضياع.

ورغم أن أوجه التمايز والاختلاف بين وسائل الرواية والنقل في هذين الفرعين من العلوم إبان هذه الحقبة مدهشة، إلا أنه من الصعب الجزم بوجود

صلة وثيقة في ضوء عدم تناول الدراسة الحالية للأهمية السياقية والمفاهيمية لتاريخ علم القراءات بشكلٍ كاملٍ؛ إِذْ إنّ ميلشرت يضع مشروع ابن مجاهد في سياق وسائل التحمّل والأداء في علوم الحديث[١]؛ على سبيل المثال، يورد ميلشرت قول ابن مجاهد في الإنكار على من يقرأ بأيّ قراءة لمجرد اتفاقها مع نصّ خَلَا من النقط والإعجام دون أن يكون قرأ بها أحد الأئمة السابقين؛ ومع ذلك فإنّ القضية التي تهم ميلشرت في هذه الحالة إنما تتعلق بكون بعض القراءات جاءت نتيجة النقل الكتابي. ويرى ميلشرت أنّ النقل لو اقتصر على الرواية الشفهية لما برز النقاش حول مدى جواز القراءة إذا اتفقت مع نصّ خَلَا من النّقط والإعجام، وبناء على ذلك يرى في هذا دليلًا منطقيًّا على اعتماد بعض القُرّاء على النصّ المكتوب[٢]. ومع ذلك فإنّ غاية ابن مجاهد في قوله هذا أن يكبح جماحَ النحاة في الحدس والتخمين، وما قال ذلك إلا وهذا الخاطر يلحّ عليه، وبذلك يمكن القول بأن التصنيف الصريح للاتجاهات العلمية الذي جاء به ميلشرت ينبني على استنتاجاته ومنهجه في تفسير جهود ابن مجاهد.

ومن المثير للاهتمام أنّ ميلشرت لم يذكر بوضوح دور العلماء الأوائل الذين انشغلوا بالنصّ القرآني وقراءاته، ولم يشر إليهم باعتبارهم مدرسة علمية

(١) Christopher Melchert, 'Ibn Mujahid and the Establishment of Seven Qur'anic Readings', Studia Islamica ٩١ (٢٠٠٠), pp. ٥-٢٢, p. ٥.

(٢) Melchert, Studia Islamica ٩١, p. ١٥.

منفصلة، هي مدرسة القراء، وكذلك لم يتطرّق لإمكانية أن يكون هؤلاء قد جسّدوا مدرسة المحدِّثين. وبالنسبة له فإنّ دراسة القراءات وروايتها قبل ابن مجاهد هو عمل اختص به النحاة دون المحدثين[١]، ويؤكّد على أن دراسة القراءات ظهرت في أول الأمر في أروقة الأدب في بغداد[٢]، وأنّ ابن مجاهد أقرب إلى المدرسة الشبيهة بأهل الرأي؛ وفي هذه الأثناء فإنّ محاولة دعم القراءات السبع في نظر ميلشرت هي وسيلة لوضع حدّ لتضاعف القراءات وبالتالي تقليل العبء الواقع على المتخصصين في العلوم القرآنية[٣]، ويرى ميلشرت أن وضع هذه القراءات السبع قد وضع حدًّا للتعقيد المتنامي في مجال القراءات، وأنّ الاعتراف بها -رغم كونه منقوصًا- قد مثّل نقطة تحوّل واضحة في القرن العاشر نحو توافق محدود وقدرة على السيطرة[٤]، وعلاوة على ذلك فلا يرى في محنة ابن مقسم وابن شنبوذ انتصارًا لأهل الأثر ولا إقرارًا لاختيار ابن مجاهد لهذه القراءات السبع[٥]، ومع ذلك لا بد من التأكيد على أن ابن مجاهد حين اختار

(١) نفس المرجع، ص٥.

(٢) نفس المرجع، ص١٠.

(٣) نفس المرجع، ص١٨. وانظر ما كتبه ويلش عن كلمة قرآن في موسوعة الإسلام، الطبعة الثانية، الجزء الخامس، ص٤٠٨- ٤٠٩. ويختلف ميلشرت مع رأي ويلش في الغرض من عمل ابن مجاهد وصِلة ذلك بعقيدة الأحرف السبعة.

(٤) ميلشرت، المرجع السابق، ص٢٢.

(٥) نفسه، ص٢١.

هذه القراءات لم يقصد مطلقًا إلزام القُرّاء باختياره؛ فإنّ المسلّمات التي استقر عليها العمل في القراءات كان لها القول الفصل في هذا الصّدد، فابن مجاهد قد سَبّع هذه السبع واختارها بعد أن ثبتت لديه بالتواتر عن سبعة قرّاء، وكانت هناك اختيارات أخرى معتمدة غير هذه السبع[1]، وحاول ابن مجاهد بصنيعه هذا أن يثبت أن القراءة سُنَّة؛ ولذا عاب سلوك بعض النحاة في توثيق وتحليل القراءات، وسار في درب التأليف على خطى أئمة القرَّاء ممن سبقوه ليكمل مسيرتهم.

(١) يرد هذا في مطلع مقالة ميلشرت.

المواجهة التاريخية: الخلفية والسياق:

تأتي أعمال ابن مجاهد في سياق الإطار التاريخي لمحنتي ابن مقسم وابن شنبوذ، وقد ذكرت كتبُ السِّيَر والتراجم التراثية عدّة روايات تناولت المحنتين، ويبدو من حال هذين الشخصين أنهما كانا ضحية للتحولات الملموسة نحو التوحيد والتجانس في القرنين التاسع والعاشر من التاريخ الإسلامي، ومع ذلك وحتى يتأتَّى لنا تقييم أهمية الأحداث التي أدّت إلى محنة هذين القارئين، لا بد لنا أن نقف على لُبّ الموضوع؛ لقد تبنّى هذان القارئان على نحوٍ مستقلٍّ منهجًا خاصًّا في اختيار القراءات القرآنية يتعارض بوضوح مع ما كان سائدًا في هذا المجال، وكان لهما رأيٌ في القراءة بالحروف الشاذّة التي تخالف رسم المصحف في السواكن وغيرها علاوة على حالات الإبدال والإدغام والزوائد[1].

ومع ذلك؛ نظرًا للأهمية الشعائرية التي يحظى بها القرآن ولا تقبل الجدل فإن هذه القراءات الشاذة لا يمكن اعتبارها من قبيل القرآن بالمعني الحرفي للكلمة؛ وكان لهذا مقتضياته المهمّة على جواز القراءة بهذه القراءات في العبادات، مثل صلاة المرء منفردًا أو في جماعة، وهذا هو الواقع الذي تبلورت

(١) يحسن هنا التوضيح بأن القراءة بما يخالف رسم المصحف العثماني تصحّ في حالة ابن شنبوذ، لكنها لا تصح في حالة ابن مقسم العطار، والذي أجاز فقط القراءة بكلّ ما يصح في العربية لكن مع ضرورة موافقته رسم المصحف، وهو ما سيذكره شاه نفسه بعد قليل عند كلامه عن ابن مقسم العطار. (قسم الترجمات).

فيه المعارضة الشديدة لمثل هذه القراءات الفردية الشاذّة، وتشير الأحداث التاريخية إلى تبنّي النحاة منهجًا متجرّدًا في دراسة الظواهر اللغوية في القراءات القرآنية، وكان ابن مقسم وابن شنبوذ في شأنهما هذا قد كشفا عن رابط لغوي حين انتهجا طريقة استوحيت بشكلٍ غير مباشر من المواقف الحدسية للنحاة؛ ولذا فإنّ فترات التوحيد والتجانس تمثّل دورًا هامشيًّا في التأثير على سير الأحداث، اتفق لها أن شكّلت خلفية لعمل هذين القارئين، ومن المفارقات التي انطوت عليها تعقيدات هذا الشأن أن وجد القراءُ أنفسهم في مواجهة النحاة في خضم هذا الجدل، رغم أن ابن مقسم حاز على سمعة طيبة كواحد من النحاة، ومع ذلك فإنّ هذين الشخصين قد أشعلا من جديدٍ فتيلَ هذه القضية الشائكة حول المناهج المتّبعة في توثيق القراءات القرآنية.

ولا شكّ أن إبراز هذه الآراء الشاذّة في توثيق القراءات قد لاقى معارضة شديدة على مَرّ التاريخ بغضّ النظر عن البيئة السائدة، وهو أمر تشهد عليه كتابات النحاة الأوائل التي كتب لها البقاء والاستمرار.

ابن مقسم محمد بن الحسن بن يعقوب أبو بكر العطار هو أحد أئمة مدرسة الكوفة النحوية كما وصفه ابن الأنباري الذي كان معاصرًا له (٢٦٠- ٣٢٨)، وقد عُرف باسم غلام ثعلب؛ لقربه الشديد من الإمام النحوي الكوفي ثعلب[1]،

(١) كمال الدين أبو البركات الأنباري، نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي (الزرقاء: مكتبة المنار)، يشار إليه لاحقًا باسم (نزهة)، ص٢١٥.

ورغم منهجه الشاذ في القراءات إلا أن كتبه ورسائله تكشف عن ورعه وتقواه، من كتبه: كتاب الأنوار في تفسير القرآن، وكتاب المدخل إلى علم الشعر، وكتاب الاحتجاج في القراءات، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب المذكّر والمؤنث، وكتاب الوقف والابتداء، وكتاب المصاحف، وكتاب عدد التمام، وكتاب مجالسات ثعلب، وكتاب الانتصار لقرّاء الأمصار، وكتاب اللطائف في جمع هجاء المصاحف، ولعلّ الأكثر إثارة للاهتمام كتابه الرّد على المعتزلة[1]. وهذه المعارف والعلوم هي ما كانت شائعة آنذاك في أعمال أوائل القرّاء، وقد اتصل بمجموعة رائعة من القرّاء لعلّ من أهمهم إدريس بن عبد الكريم (١٩٩-٢٩٢) وكان شيخًا لابن مجاهد وابن شنبوذ[2].

وكان لابن مقسم رأي في القراءات، فكلّ قراءة وافقت المصحف، ووجهًا في العربية؛ فالقراءة بها جائزة وإن لم يكن لها سند. ورأى أن هذه القراءة جائزة، يُقرأ بها في العبادات وفي صلاة الجماعة وغيرها من الصلوات، واختياره في

(١) أبو عبد الله يعقوب بن عبد الله ياقوت الحموي، معجم الأدباء (خمسة أجزاء، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩١)، ج٥، ص٣١٢. ينبغي مقارنة هذه الأسماء بما ورد عند ابن النديم في الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، الطبعة الثالثة (بيروت: دار المسيرة، ١٩٨٨)، ص٣٦. وقد صنّف ولده كتابًا شهيرًا بعنوان عقلاء المجانين.

(٢) محمد بن محمد الدمشقي الجزري، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع (مجلدان، بيروت: دار الكتب العلمية، بدون تاريخ)، ج٢، ص١٢٣ (ورد في طبقات القراء باسم محمد بن الحسن يعقوب).

القراءات يوضح اشتمالها على إبدال بعض المفردات وتغيير بعض الحروف على وجوه تخالف بناء الألفاظ التي تعارف القراء عليها[١].

وخبر محنة ابن مقسم مذكور في كتاب البيان والفصل من تأليف أبي طاهر عبد الواحد بن عمر (ت: ٣٤٩)، صاحب ابن مجاهد، وقد نقله عنه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (ت: ٤٦٣)، وياقوت في معجم الأدباء (ت: ٦٢٩)[٢]. قال أبو طاهر ابن عمر: «وقد نبغ نابغ في عصرنا فزعم أن كلّ من صحّ عنده وجه في العربية بحرف من القرآن يوافق المصحف فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها»[٣].

ومن أمثلة القراءات التي اختارها ابن مقسم ما جاء في سورة يوسف في الآية الثمانين في قوله: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] (في إشارة إلى

(١) درس آرثر جيفري هذه القراءات في بحث بعنوان: (The Qur'an Readings of Ibn Miqsam) ضمن S. Lowinger & J. de Somogyi (eds), *Ignaz Goldziher Memorial Volume* (٢ vols. Budapest: Globus, ١٩٥٨), pp. ١-٣٨.

(٢) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (١٤ مجلدًا، بيروت: دار الفكر، د. ت)، ج١، ص٢٠٦- ٢٠٨؛ وانظر: غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق: برجستراسر وأوتو برتزل (مجلدان، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣٥)، ويشار إليه لاحقًا باسم طبقات القراء، ج١، ص٤٧٥- ٤٧٧. وقد اعتمد في هذا الكتاب على كتب التراجم مثل كتاب أبي عمرو الداني.

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص٢٠٦-٢٠٨.

إخوة يوسف حين دبّ اليأس في نفوسهم من استجابة العزيز لهم وإطلاقه سراح أخيهم، فانتحوا جانبًا يتهامسون فيما بينهم). وقرأها ابن مقسم: (نُجبًا) بإبدال الياء باءً؛ وبهذا اختلف معنى الآية، وهو ما انعكس على ترجمة آرثر جيفري[١] للآية؛ إذ وافقت ترجمته قراءة ابن مقسم[٢]. وقد ذكر ياقوت أن هذا بعيد من المعنى[٣]، وكان ابن مجاهد من أبرز من استعان بهم السلطان ليراجعه في قوله.

لا بد للمرء أن يضع في اعتباره أنّ المصحف العثماني كان مجردًا من النقط والشَّكْل، مما سمح بوجود عدّة قراءات معتمدة للنصّ في المصاحف[٤]، وكانت هناك بعض الاختلافات الإملائية بين هذه المصاحف، ومن هنا ظهر فنّ اختلاف المصاحف للنظر في الاختلافات الإملائية في النُّسخ القرآنية المبكّرة،

(١) آرثر جيفري (١٨٩٢- ١٩٥٩)، مستشرق أسترالي، كان أستاذًا للغات السامية في كلية الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة منذ ١٩٢١، ومنذ عام ١٩٣٢ في جامعة كولومبيا في قسم دراسات الشرق الأدنى، ثم في مدرسة اللاهوت بنيويورك، تتركّز اهتماماته الرئيسة في تاريخ القرآن، كتب في هذا عددًا من الكتب: الأحرف الغامضة في القرآن، المفردات الأجنبية في القرآن، التاريخ النصي للقرآن، وقد حقّق وقدّم كتاب المصاحف لابن أبي داود، والمطبوع بالمطبعة الرحمانية بمصر عام ١٩٣٦. (قسم الترجمات).

(٢) Jeffery, 'The Qur'an Readings of Ibn Miqsam', p. ٦.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص٣١١- ٣١٢.

(٤) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، ص٣٣. انظر ما ورد في مقالتي في مجلة الدراسات القرآنية المجلد الخامس العدد الأول، ص٦٣.

وقد راعى أوائل القرّاء هذا الأمر في عدّ الآيات[١]. ومع ذلك فإن الطبيعة الشفهية لرواية القراءات كان لها القول الفصل في جميع هذه العمليات المادية، ويبيّن أبو طاهر -صاحب البيان- أن ابن مقسم ابتدع هذه البدعة؛ لأنه اعتمد في اختياره لهذه القراءات على الحدس والظنّ دون أن يكون له سند من روايات سابقة[٢].

تحكي الروايات التاريخية أنّ عددًا من كبار الفقهاء والقرّاء قد رفعوا أمر ابن مقسم إلى السلطان، وكانت محنته في سنة ٣٢٢ هجرية، وكان لابن مجاهد دور أساسي في إقامة الحُجّة على ابن مقسم بعد أن سأله البرهان على صحة ما ذهب إليه، فلم يأت بها[٣]، وأجبر على كتابة توبته وقد أظهر الإقلاع عن بدعته، وقيل إنه عاد إليها وظلّ يقرأ بهذه الحروف حتى وفاته، ونُقل عنه استشهاده بأنّ أئمة القراءات لهم اختياراتهم الخاصّة، وأنه قد سار على نهجهم في هذا، وذلك أنه قال لما كان لخلف بن هشام وأبي عبيد وابن سعدان أن يختاروا وكان ذلك مباحًا لهم غير منكر كان ذلك أيضًا مباحًا غير مستنكر[٤]. وقد فنّد صاحب البيان

(١) أبو عمرو الداني، المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار، تحقيق: محمد دهمان (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٣)، ص١١٥.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص٣١١.

(٣) نفسه، ج٥، ص٣١١- ٣١٢.

(٤) نفسه، ج٥، ص٣١١.

هذا القول وردّه بأن فرّق بين طريقة هؤلاء الأعلام والشذوذ الذي سلكه ابن مقسم.

وجاء في نزهة الألباء في طبقات الأدباء الذي وضعه النحوي البصري ابن الأنباري في القرن الحادي عشر في تراجم النحاة واللغويين أن القارئ الكوفي خلف بن هشام (١٥٠- ٢٢٩) ترك حروفًا من حروف حمزة بن حبيب (٨٠- ١٥٦) واختار أن يقرأ على مذهب نافع (ت: ١٦٩)[١]، أما أبو عبيد وابن سعدان فلم يجاوز واحد منهما قراءة أئمة القراء بالأمصار[٢].

على الرغم من تمسك ابن مقسم بأنه حذا حذو مَن سبقه، إلا أنه مضى ليتجاوز ما كان مقبولًا في مناهج اختيار القراءات وتوثيقها وتفسيرها، ومن بين هذه المناهج ما يشدّد على أهمية الإسناد، ومنها ما يجمع بين الإسناد والتحليل الظني، ومع ذلك فإنّ منهج الجمع لا بد فيه من اتفاق الاختيار مع وجوه العربية؛ فإنّ النحاة قد اختاروا من مجموعة من القراءات التي لها سند، وجعلوا من موافقتها العربية مبدأ أساسيًّا في ترجيح قراءة على ما سواها، ونادرًا ما أغفلوا مبدأ الرواية والسند في جمع هذه القراءات.

(١) ابن الأنباري، نزهة الألبّاء، ص٢١٥، وجمال الدين القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (٤ أجزاء، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٥٦)، ج٣، ص١٠١- ١٠٣.

(٢) ابن الأنباري، نزهة الألبّاء، ص٢١٥.

ويتجلى البناء الافتراضي للسمات اللغوية في النصّ المقدّس من خلال كتب المعاني (وهي تفاسير لغوية للقرآن)؛ وإن جاءت هذه الأعمال بروح التعليل اللغوي مصحوبة في الغالب بالتأكيد على استناد القراءات إلى روايات وأسانيد معتمدة محددة، وفي المقابل فإنّ منهج ابن مقسم جعل الأولوية لموافقة اللغة العربية فحلت محلّ الإسناد، حتى إن جيفري الذي جمع العديد من قراءات ابن مقسم وفصّل القول في ذلك قد خلص إلى أن محنة هذين القارئين كانت بمثابة اختبار لمشروعية الاختيار التي ظهرت في السابق اعتباطًا، ويرى جيفري أن الأمر يتعلّق في الأساس بتقييد الاختيار، وبالتالي ظهور عملية تدوين النصّ القرآني[١].

لكن النظرة المتفحّصة للمصادر المبكّرة في علم القراءات تبيّن خلاف ذلك؛ فإنّ ابن مقسم وابن شنبوذ قد خرجا على القواعد التي طالما نظر إليها أصحابهم من القُرّاء بعين التقديس، وفي ضوء ما امتاز به ابن مقسم كنحوي خبير في مدرسة الكوفة فإنّ ديناميكية منهج ابن مقسم في القراءات تتيح لنا وضعها بوضوح في إطار فلسفة لغوية، وقد سار على نهج متطرف في القراءات لم يقبل بما استقرّ عليه القرّاء والنحويون، ومن المفارقات أن يُجْمِع النحاة المعاصرون له من مدرستي البصرة والكوفة على رفض ما جاء به ابن مقسم، وينهضون لتفنيد

(١) Jeffery, 'The Qur'an Readings of Ibn Miqsam', p. ٢.

قراءاته، ومن هؤلاء ابن الأنباري، وله كتاب (الرد على من خالف مصحف عثمان) وهذا ابن درستويه (٢٥٨- ٣٤٦) يؤلف كتابَ الردِّ على ابن مقسم في اختياره[١].

وقد نُسب لابن مقسم كتابٌ بعنوان (الاحتجاج للقرآن)، عرض فيه قراءاته الشاذة وانتصر لها[٢]، واتسمت اختيارات ابن مقسم بدلالات رمزية، وذكر ياقوت في معجمه خبر منام رأى فيه بعضُهم ابنَ مقسم في المسجد الجامع يصلّي مع الناس، وقد ولّى ظهره القبلة وهو يصلّي مستدبرها، وقد أوّله بعض العارفين بتأويل الأحلام بمخالفته الأئمة فيما اختاره لنفسه من القراءات[٣].

شارك ابن مجاهد في محنة أخرى وقعت سنة (٣٢٣)، لأحد القراء المعروفين، وهو محمد بن أحمد بن شنبوذ الذي أكثر الترحال في طلب

(١) ابن النديم، الفهرست، ص٨٢، ٦٩، وانظر أيضًا: القفطي، إنباه الرواة، ج٢، ص٦٦؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (مجلدان، بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٦٤) ج٢، ص٨٢- ٨٣.

(٢) يمكن الوقوف على نماذج لهذه القراءات في الفهرست عند ابن النديم، ص٧٣- ٧٤. ويذكر ياقوت تفاصيل القراءة في معجم الأدباء، ج٥، ص٣١١.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص٣١٢. وانظر أيضًا:

Leah Kinberg, 'The Standardisation of Qur'an Readings: The Testimonial Value of Dreams' in Kinga D٦\٦nyi & Tamas Ivanyi (eds). Proceedings of the Colloquium on Arabic Grammar (Budapest: ١٩٩١) pp. ٢٢٣-٣٨; cf. Arthur Jeffery, 'The Qur'an Readings of Ibn Miqsam', p. ٨.

القراءات ونزل ضيفًا على أبرز حواضر العلم في زمانه[١]، وقد أخذ عن إبراهيم الحربي (١٩٨-٢٨٥) الإمام اللغوي المعروف بورعه وتقواه[٢]، وقرأ على شيخه إسحاق بن إبراهيم (ت: ٢٨٦) والذي عُرف بأنه ورّاق خلف بن هشام البزار، ونقل عنه أخوه قراءة خلف واختياره[٣].

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن ابن شنبوذ له خمسة كتب، هي: كتاب ما خالف فيه ابنُ كثير أبا عمرو، وكتاب قراءات عليّ، وكتاب اختلاف القرّاء، وكتاب شواذّ القراءات، علاوة على رسالة في قراءاته. ومرة أخرى كانت هذه الأعمال النوع السائد من الكتابات في بداية علم القراءات[٤].

وإذا كان ابن مقسم أجاز القراءة بكلّ وجه صحّ في العربية ووافق رسم المصحف، فإن ابن شنبوذ ذهب إلى عدم اشتراط موافقة رسم المصحف العثماني، وعُرف عنه قراءته بالشواذّ، ويُراد بالشاذّ في اصطلاح القراءات ما شذّ

(١) ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص٥٢- ٥٤. ويُكتَب شنبوذ بسكون الباء الموحدة وفتحها. وقد نقل ياقوت هذا عن كتاب التاريخ لإسماعيل بن علي الخطبي (ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص١١٤).

(٢) ابن الأنباري، نزهة، ص١٦١.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص١١٤- ١١٥. انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص٢٨٠- ٢٨١، وابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص٣٤، ١٥٥.

(٤) للوقوف على نماذج لهذه الكتابات، انظر مقالة مصطفى شاه، مجلة الدراسات القرآنية، المجلد ٥، العدد الأول، ص٤٧- ٤٨.

عن القراءات المتواترة لسببٍ أو لآخر؛ كأنْ فَقَدَت القراءة شرطَ التواتر في الرواية، أو خالفَت المصحف الإمام، أو لا توافق وجهًا من وجوه العربية[1]. والنوع الثاني هو ما عُرف به ابن شنبوذ في قراءته، فقد صحَّت عنده القراءة بما كان له سند وصحّ في العربية بوجهٍ من الوجوه وإنْ خالف رسم المصحف الإمام.

وروي أنه قرأ في صلاة الجماعة بحروف تخالف المصحف مما يُروى عن عبد الله بن مسعود وأبّي بن كعب وابن عباس وغيرهم، مما كان يُقرأ به قبل جمع المصحف في عهد عثمان[2]. ومن أمثلة ما قرأ به ما جاء في سورة الجمعة في قوله: (إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى ذكر الله) [الجمعة: ٩]، بدلًا من: (فاسعوا)، وكذلك في سورة الكهف في الآية (٧٩) من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبًا﴾[الكهف: ٧٩]، فقرأ: (يأخذ كلّ سفينة صالحة غصبًا)[3].

---

(١) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، ص٩- ١٦. وكذلك جون وانسبرو في كتابه *Quranic Studies: Sources and Methods of Scriptural Interpretation* (أكسفورد، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٧٧)، ص٢٠٤ للوقوف على كلامه في الشاذّ.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص١١٤- ١١٥.

(٣) نفس المرجع، ص ١١٥. هناك تشابه دلالي في هذه القراءات في وراء وأمام؛ إذ إن كلمة وراء من الأضداد. انظر: كتاب الأضداد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٨٧)، وانظر جون وانسبرو، مرجع سابق، ص٢٠٢- ٢٠٣.

ويذكر ابنُ النديم (ت: ٣٩٣) وياقوتُ نماذجَ لقراءاته الشاذّة التي خالف بها المصحف الإمام[١]. وقد وضع اللغوي الكوفي ابن الانباري كتابًا في الردّ على هذه القراءات أسماه كتاب نقد مسائل ابن شنبوذ[٢].

ويبدو أن ابن شنبوذ أصرّ على منهجه ورفض أن ينزل عنه ولم يمتنع عن القول بهذه القراءات وإثبات ما لها من قيمة تعبديّة، فأُحْضِر أمام مجلس من القضاة والفقهاء والقرّاء، انعقد بحضرة الوزير محمد بن مقلة (٢٧٢- ٣٢٨)، وأورد ياقوت عددًا من الروايات التاريخية المهمّة التي تناولت هذه المسألة، ونقل عن أفواج القرّاء ما وقع لابن شنبوذ، ودور ابن مجاهد في التصدّي له واضطهاده[٣]، وقد وقّع على محضر أورده ياقوت في معجمه أعلن فيه رجوعه عمّا قرأ به بعد أن ضُرِب نحو عشرة أسواط[٤]، وأُطلِق سراحه لكنه مِثل معاصره ابن مقسم استمر سرًّا في دعواه. وجاء في الخبر البليغ الذي أورده ابن الجوزي

(١) ابن النديم، الفهرست، ص٣٤- ٣٥.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص١١٥ وما بعدها. انظر أيضًا: ابن النديم، الفهرست، ص٨٣.

(٣) ياقوت، المرجع السابق، ج٥، ص١١٦- ١١٧.

(٤) نفس المرجع، ص١١٦. هناك قصة مثيرة تُروى في خبر محنة ابن شنبوذ ذلك أنه بعد أن أنزل به الوزير ابن مقلة العقاب لتشبثه بقراءته، دعا ابن شنبوذ ربَّه أن يقطع الله يده ويشتّت شمله، فكان الأمر كذلك. انظر ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص٥٤.

الحنبلي (ت: ٥٩٧) في محنة ابن شنبوذ أنه رجع عن القراءة ببعض الشواذّ، غير أنّه تمسك ببعض ما قرأ به وأصرّ أنّ له سندًا[١].

ورغم ما بين منهجي القارئَين من تفاوت دقيق إلا أن موافقةَ العربية سمةٌ مشتركةٌ نصّ عليها ابن مقسم وابن شنبوذ، وإن بدا هذا أقلّ وضوحًا للوهلة الأولى في منهج ابن شنبوذ، ومع ذلك فإنّ نزول ابن شنبوذ عن أغرب القراءات التي قال بها يوحي بأن قراءاته الشاذّة لم تقتصر على ما خالف المصحف الإمام مثل ما يُنسب لكبار الصحابة، وإنما يُحتمل أنه جاء بقراءات أخرى كانت محلّ خلاف أيضًا، ويتّفق هذا على ما يبدو مع المنهج المستوحى من النّحاة، وإن كانت هذه المناهج فاقت كلّ الحدود وتجاوزت أغرب ما قال به النحاة.

ولعلّ من أول القرّاء الذين أكّدوا على الاعتبارات اللغوية في توثيق القراءات هو القارئ النحوي المكي ابن محيصن (ت: ١٢٣)، ويؤكّد ابن مجاهد في مقدّمة كتاب السبعة أن ابن محيصن يبني ويرصص في العربية، وكان له اختيار لم يتبع فيه أصحابه استند فيه إلى مذاهب العربية[٢]، وذكر ابن مجاهد أنّ هذا ما جعل أهل مكة لا يُجمعون على قراءته كما أجمعوا على قراءة ابن كثير (٥٤-١٢٠). وكان ابن

(١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢)، ج١٣، ص٣٤٨، وانظر ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص٥٤.

(٢) ابن مجاهد، كتاب السبعة، ص٦٥ وما بعدها.

محيصن شيخًا للعديد من أهل اللغة البصريين والكوفيين[١]، ومن المثير حقًّا أن ابن شنبوذ كان من بين العلماء الذين حرصوا على رواية قراءة ابن محيصن، وكان هذا المنهج المستوحى من اللغة في التعامل مع القراءات هو ما خلق الظروف المواتية لظهور الفكر اللغوي العربي[٢].

أورد عالم القراءات ابن الجزري (٧٥١- ٨٣٣) في القرن الرابع عشر ثلاثة شروط لصحة أيّ قراءة قرآنية، ونصت هذه الشروط على ضرورة وجود إسناد لها، واتفاقها مع رسم المصحف، ومع وجه من وجوه العربية[٣]؛ وقد شكّلت هذه المعايير أساس التعامل مع القراءات لدى عددٍ من الأئمة من أمثال مكي بن أبي طالب (٣٥٥-٤٣٧) وأبي عمرو الداني (٣٧١-٤٤٤)، لكن الرّوح الحقيقية لهذه الشروط تنمّ عن ظهورها في وقت مبكّر عن هذا، وبخاصة شرط موافقة رسم المصحف[٤].

(١) مصطفى شاه، مجلة الدراسات القرآنية، ج٥، العدد الأول والثاني.

(٢) شهاب الدين القسطلاني، لطائف الإشارات في فنون القراءات، تحقيق: عبد الصبور شاهين وعامر السيد عثمان (القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٧٢)، ج١، ص١٠٥. يذكر صاحب اللطائف أن قراءته الشاذة لا تقدح في شخصه ولا تنال من مكانته في الرواية.

(٣) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، ص٩ وما بعدها.

(٤) انظر مقدمة كتاب حجة القراءات لأبي زرعة، تحقيق: سعيد الأفغاني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩) ص١٣. ووفقًا لهذا القول فلا بد أن يكون الإسناد متواترًا. وكان من المفترض أن يؤكّد مكي وابن الجزري على هذا الأمر، والمسألة هنا اصطلاحية.

وانتقاد النحوي الكوفي الفراء (١٤٤-٢٠٧) لبعض قراءات أبي عمرو بن العلاء (ت: ١٥٤) انطلقت من شرط موافقة المصحف[١]. ويمضي ابن الجزري ليقرّر أنّ كلّ قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا، وصح سندها؛ فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها ولا يحلّ إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وقد أفسحت نظرية الأحرف السبعة المجال فيما يخصّ إقرارها معايير محدودة للتنوع والاختلاف في القراءات[٢].

وذهب عددٌ من العلماء إلى أنّ المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة، في حين ذهب بعضهم إلى أنها مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط[٣]، وعاب ابن الجزري على مَنْ جهل الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات السبع التي اختارها ابن مجاهد، وبيّنَ أن من القراءات الصحيحة ما يُنسب لغير القرّاء السبعة، وأن العلماء عابوا على ابن

(١) مصطفى شاه، مجلة الدراسات القرآنية، ج٥، العدد الأول والثاني.

(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، ص٣١- ٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص٣٣. وانظر أيضًا: ص٧ وما بعدها، المبحث الأول من المقنع للداني، والمناقشة الشاملة للحروف السبعة عند الباقلاني في الانتصار للقرآن، تحقيق: محمد عصام القضاة (مجلدان، بيروت، دار ابن حزم، ٢٠٠١)، ج١، ص٣٦٧- ٩٢، وكذلك ج٢، ص٤٣٧. انظر أيضًا المجلد الأول، ص٦٩ للمسائل المتعلقة بطرق القراءات في المصاحف العثمانية.

مجاهد تسبيعه هذه السبعة، وقالوا: ليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد؛ ليزيل هذه الشُّبهة التي وقع فيها البعض من ظنهم القراءات السبعة هي الأحرف السبعة[1].

ويتضح من كلام ابن الجزري أن النحاة رغم تأكيدهم على الاعتبارات اللغوية مثل مسألة ورود السماع أو مخالفة القياس في استخدام اللغة، فإنّ القراء مالوا إلى الاعتماد بشكلٍ أساسي على الإسناد.

أشار ابن قتيبة (٢١٣-٢٧٦) إلى أحد الفروق المهمّة في استعمال الأحرف السبعة في كتابه الأصيل (تأويل مشكل القرآن)؛ فبعد أن أورد نماذج لوجوه القراءات تضمنتها مصاحف سبقت المصحف الإمام، طرح سؤالًا حول حكم القراءة بجميع هذه الوجوه في الوقت الحالي، وجاء جوابه بأنّ كلّ ما كان منها موافقًا لمصحفنا غير خارج عن رسم كتابته جاز لنا أن نقرأ به، وليس لنا ذلك فيما خالفه[2]، وشدّد على أن ذلك كان جائزًا في حقّ الصحابة والتابعين ولقوم من القرّاء بعدهم دون غيرهم، وأن ما قرؤوا به هو حسن اختيار السلف لنا ولا

(١) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، ص١٤- ١٨؛ وله أيضًا: طبقات القراء، ج٢، ص١٢٣. وانظر: شمس الدين الذهبي، معرفة القراء الكبار، تحقيق جادّ الحق، الطبعة الأولى (القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٨)، يشار إليه فيما بعد باسم (معرفة).

(٢) محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: أحمد صقر، الطبعة الثانية (القاهرة: دار التراث، ١٩٧٣) ص٤٢.

يجوز لنا أن نعدُوه[١]، ويعزّز هذا الكلام ما ذهب إليه قوم من أنّ العلماء المتأخرين إنما اقتصروا على الاختيار من مجموع هذه القراءات المختارة.

يشير ابن الجزري إلى ابن شنبوذ وابن مقسم في حديثه عن شروط قبول القراءات، ويرى أنّ العداوة بين ابن مجاهد وابن شنبوذ تجري على عادة الأقران[٢]، ومن الملاحظ أن ابن شنبوذ كان حظّه من النقد أقلّ؛ نظرًا لوجود اختلاف بين الفقهاء في جواز القراءة بالشاذّ في الصلاة، والقصد هنا القراءة بما يُنسب لبعض الصحابة قبل المصحف الإمام، ومع ذلك فإنّ جمهور الفقهاء على أنّ هذه القراءة تفتقر إلى التواتر والإجماع الذي يجعلها من القرآن[٣]، وانتقدوا من يرى القراءة بها على أنها من القرآن[٤]، وقد دافع ابن شنبوذ عن رأيه

(١) نفس المرجع.

(٢) ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص٥٤.

(٣) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، ص١٤- ١٥. ويرى ابن الجزري أنّ ما لم يُقْطَعْ على صحَّتِه لا يَجُوزُ الْقِرَاءةُ به، وَلَا يكْفُرُ مَنْ جَحَدَهُ، ولبئس ما صنع إِذَا جَحَدَهُ (ص١٤). ويرى أيضًا أنّ إطلاق من لا يعلم على ما لم يكن عن السَّبْعَةِ الْقُرَّاءِ، أو ما لم يكن في هذه الكتب المشهورة كالشاطبية والتيسير أنه شاذّ، فإنه اصْطِلَاحٌ ممّن لا يعرف حقيقة. وكما لاحظنا من كلام ابن جني فإنّ ابن مجاهد يشير إلى مستويات الرواية وتواترها في هذا الصدد.

(٤) القسطلاني، لطائف الإشارات، ج١، ص٧٢- ٧٦. انظر مقالتي القادمة بعنوان: The Juridical Implications of the *qira'at al-shddhdha*. ويوضح ابن الجزري الغلط فيما يتعلق بهذا المصطلح وحقيقة أنه كان مظلة للقراءات من غير السبعة. انظر ابن الجزري، النشر، ج١، ص١٤- ١٥.

بأن هذه القراءات قد قُرئ بها في عصر من العصور على يدِ عدد من كبار الصحابة والتابعين الذين تلقوا هذه القراءات عن الرسول[١]، لكن أكثر العلماء ومنهم ابن الجزري يردّون هذا الكلام، ويرون أن هذه القراءات غير جائزة؛ لأنها وإن ثبتت بالنقل فهي منسوخة بالعَرْضة الأخيرة أو بإجماع الصحابة على المصحف العثماني[٢]، ومن الجلي أنّ ابن الجزري قد انتقد بشدّة طريقة ابن مقسم في اختيار القراءات وعدّها كبيرة، وإن استند فيها إلى وجه من العربية[٣].

(١) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، ص١٤- ١٥. انظر ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص٥٣ وما بعدها. ويذكر ابن الجزري في الاختلاف في القراءة بها: فأجازها بعضُهم؛ لأنّ الصحابة والتابعين كانوا يَقْرَؤُونَ بهذه الحروف في الصلاة، وهذا أحد القولين لأصحاب الشافعي وأبي حنيفة وإحدى الروايتين عن مالك وأحمد. وأكثر العلماء على عدم الجواز؛ لأنّ هذه القراءات لم تثبت متواترةً عَنِ النبيّ ﷺ، وإن ثبتت بالنقل فإنها منسوخة بالعرضة الأخيرة أو بإجماع الصحابة على المصحف العثماني. وقد أورد نكتًا لطيفة في هذه المسألة في الصفحة الخامسة عشرة. ويرى ميلشرت أن أحمد بن حنبل لم يجد بأسًا في القول الذي ذهب إلى جواز أن يقرأ المرء بقراءته الخاصّة طالما استندت إلى رواية معروفة على نحو ما جاء في تاريخ الذهبي، ومع ذلك فالقياس لا يستقيم في حالة ابن شنبوذ؛ لأن قراءته لا يتوافر فيها هذا الشرط ولا تستند إلى رواية معروفة بين القراء الأوائل. انظر: ميلشرت، مجلة الدراسات الإسلامية ٩١، ص٢١.

(٢) يبيّن ابن الجزري الآراء في هذه المسألة في كتاب النشر في القراءات العشر، ج١، ص١٤- ١٧.

(٣) ابن الجزري، النشر، ج١، ص١٤- ١٥.

حول النصّ: كتاب السبعة لابن مجاهد:

عُرِفَ ابن مجاهد أحمد بن موسى بين معاصريه بأنه أقرأُ أهل زمانه، وقد تلقّى العلم على يدِ شيوخ القراءات، فأخذ عن عبد الرحمن بن عبدوس (ت: ٢٨٠) وقنبل (١٩٥-٢٩١) وغيرهما من أئمة القراء[١]، وأخذ العلم أيضًا عن أعلام مدرسة البصريين والكوفيين، فمن شيوخه محمد بن جهم السمري (ت: ٢٨٠) وثعلب (ت: ٢٩١) والمبرّد (ت: ٢٨٥)، وعرف الناسُ له مكانته في العلم؛ ويتجلّى ذلك في حسن تلقيهم لكتاب السبعة وانكباب العلماء عليه من كبار البصريين والكوفيين شرحًا وتعليقًا. وقد وضع نصّه قبل محنة ابن مقسم وابن شنبوذ، ويتضح هذا من فعل أحد تلامذته وهو أبو بكر بن السرّاج (ت: ٣١٦) الذي وقع هذا النصُّ من نفسه موقعًا عظيمًا فقرر أن يضع عليه شرحًا نحويًّا ودفاعًا عن اختيار ابن مجاهد لهذه القراءات في كتاب السبعة، وقد أتمّ أول سورة من القرآن وبضع آيات من سورة البقرة[٢]، ثم جاء أبو علي الفارسي

(١) ابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص١٣٩- ١٤٢. والفعل (قرأ) يدل على علاقته بهذين الإمامين، أما (سمع) فيُستخدم مع كثيرين غيرهما.

(٢) الحسن بن أحمد أبو علي الفارسي، الحجة في القراءات السبع، تحقيق: شلبي وناصف والنجار (مجلدان، القاهرة، الحياة المصرية، ١٩٨٣)، ج١، ص٤. صنف ابن السرّاج الأصول في النحو، والموجز في النحو.

(ت: ٣٧٧) وهو تلميذ ابن السرّاج فألَّف رسالة أسماها (الحجة في علل القراءات السبع) فاستكمل عمل شيخه وضمّنه كتابه.

ومن المثير للاهتمام أن أبا علي الفارسي يشير إلى كتاب ابن مجاهد بلفظ (معرفة قراءات أهل الأمصار والحجاز والعراق والشام)؛ ولذا فإنّ الكتاب نالَ شهرة واسعة قبل محنة هذين القارئين، كما أنّ المادة التي احتوى عليها هذا الكتاب جرى توثيقها بعناية، وهذا ابن مجاهد يقرّر أنه قد قرأ بقراءة ابن كثير، وقرأ بها على قنبل سنة ثماني وسبعين ومائتين؛ وهذا يعطينا إشارة عن تاريخ تدوين المادة الموجودة في كتاب السبعة[١].

يمثّل كتاب السبعة جهدًا معمّقًا يقوم بشكلٍ أساسي على أهمية القرآن كنصّ تعبديّ، ويتناول هذا العمل القراءات المعتمدة المنسوبة لسبعة من كبار القراء، وقد جاء على وفق الترتيب المعهود للسور والآيات القرآنية، واختار ابن مجاهد القرّاء الذين اشتُهرت قراءتهم وكُتب لها القبول والانتشار، وتلقاها بالقبول أئمة القراء في الحجاز والعراق والشام[٢].

(١) ابن مجاهد، كتاب السبعة، ص٩٢. ويذكر ويلش أن الكتاب جاء في وقته المناسب وأن وزراء الدولة تبنوا هذا الكتاب. انظر مقالة له بعنوان: القرآن، ص٤٠٩.

(٢) ابن مجاهد، كتاب السبعة، ص٨٧.

والغرض الأساسي من هذا الكتاب جمع القراءات وتدوينها وتقييمها والمقابلة بين السمات الرئيسة لهذه القراءات من حيث النّقْط والإعراب وما اشتملت عليه من تفاوت واختلاف، وحقيقة حصر مواضع التفاوت والاختلاف في مفردة أو مفردات في الآية القرآنية تثبت مدى الدقة التي اتسم بها هذا العمل، كما أن المقابلة بين الأوجه الإعرابية لهذه القراءات قد تخلّله عرض للاحتمالات الصوتية وطريقة النطق بها وهي عوامل أساسية في قراءة النصّ[1].

ضمّن ابن مجاهد كتابه مقدمة رائعة أورد فيها مقصده مِن وضعِ هذا الكتاب وما اشتمل عليه، وأشار أيضًا إلى السياق العام الذي مهّد للمنهج المقبول في توثيق القراءات والروايات المتواترة، وقد اعتمدت القراءات على ما نُقل عن النبيّ وأخذ به هؤلاء القرّاء، وعلاوة على ذلك فإنّ الخلاف في مناهج التوثيق يتردّد صداه في المسائل التي تطرّق إليها ابن مجاهد في مقدمته، وقد حذّر من مغبّة القول بقراءةٍ ما اعتمادًا على تأويل نظري وتخمين، في اتهامٍ من طرف خفيّ لمن اختار تقليد بعض النحاة في تنطّعهم، ويذكر ابن مجاهد منازل حَمَلة القرآن، فمنهم من يعرب قراءته ويبصر المعاني ويعرف اللغات ولا علم له

(١) هناك إشارة إلى بعض الإشكالات الإعرابية لكنها متفرقة، انظر ص١١٢، حيث يناقش مسألة العلة النحوية في ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ في الفصل الأول.

بالقراءات واختلاف الناس والآثار؛ فربما دعاه بصره بالإعراب إلى أن يقرأ بحرف جائز في العربية لم يقرأ به أحدٌ من الماضين، فيكون بذلك مبتدعًا. ويشير في مثال آخر إلى ما جرى بين القارئ والنحوي البصري أبي عمرو بن العلاء وتلميذه الأصمعي (ت: ٢١٣) حين سأله: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ في موضع: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ في موضع، أيعرف هذا؟ فقال ابن العلاء: ما يعرف إلا أن يسمع من المشايخ الأولين، وفي هذا إشارة إلى أن هذه القراءات إنما اعتمدت على اختيار دقيق لمادتها المقررة سلفًا[1].

ويختم ابن مجاهد مقدمته بالآثار التي جاءت عن القرّاء في أن القراءة سُنّة، ويضيف أنّ جمهور أهل العلم من القرّاء قد اتفقوا على حجيّة هذه القراءات، والناظر في محتوى كتاب السبعة وترتيبه ونسقه يدركُ أنّ مؤلفه سار على القواعد المقرّرة في علم القراءات وما جرى عليه عمل القرّاء، كما أنّ فيه إقرارًا ضمنيًّا بفضل النّحاة، ولكنه مصحوب بالتأكيد على أن اختيار القراءات بُني على الأسانيد والروايات المعتمدة.

وبعد أن استعرض ابن مجاهد الإطار الذي سار عليه في كتابه شرع في الحديث عن القرّاء السبعة الذين اشتمل هذا العمل على قراءاتهم وذكر أنسابهم

(١) ابن مجاهد، السبعة، ص٤٨. لا بد لنا من التأكيد هنا على الاختلاف بين النحاة والقرّاء وأنه على ما يبدو اختلاف منهج وطريقة؛ إذ يميل النحاة إلى الافتراض والتقدير.

وأساتذتهم وتلاميذهم ومَن رَوَى عنهم؛ وبفضل هذه المقدمة واستعراضه لسِيَر العديد من الرواة وأئمة القراءة وموطن كلّ منهم تحقّق الأثر المنشود من التأكيد على أنّ هذه القراءات نقلت بالتواتر عن الثقات.

ويذكر ابن النديم عدّة كتب من تأليف ابن مجاهد من بينها كتاب القراءات الصغير، وكتاب القراءات الكبير، وقد ذهب محقق كتاب السبعة إلى أن كتاب القراءات الصغير هو كتابه في القراءات السبع، وأنّ كتاب القراءات الكبير اشتمل على قراءات أخرى افتقرت إلى التواتر والقبول الذي توافر في اختياره للقراءات السبع، ويرى ابن جني أن ابن مجاهد أطلق على هذا النوع من القراءات اسم (الشواذ)[1].

(١) ابن النديم، الفهرست، ص٣٤. انظر مقدمة ضيف لكتاب السبعة (ص٢٠). استُخدم لفظ (الشاذة) للإشارة إلى القراءات من غير السبعة، ويبدو أن هذا تطور له تاريخ سابق. ويوجّه ابن جني نقدًا لاذعًا لابن شنبوذ وابن مقسم. ومع ذلك فإنّ تأليف كتاب المحتسب إنما قصد به توضيح العلل النحوية للقراءات الشاذة التي حددها ابن مجاهد. انظر:

Gotthelf Bergstrasser, *Nichtkanonische Koranlesarten im Muhtasab des ibn Ginnl*, Sitzungsberichte der Bayerischen Akademie der Wissenschaften (Munchen, ١٩٣٣).

ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة ابن جني، انظر صفحة ١٥؛ ولذا فإنّ كتاب القراءات الكبير قد أشار إلى القراءات الشاذة، وهي التي لم تحظَ بقدرٍ كبيرٍ من التواتر والقراءة في العواصم. وعليه فإن المعنى الاصطلاحي للفظ (شاذ) يتنوع بحسب السياق والظروف التاريخية.

وأفرد ابن مجاهد مبحثًا تمهيديًّا بحث فيه الأسانيد التي نقلت القراءات السبع التي اختارها، ولم تقتصر هذه الأسانيد على شيوخه الذين قرأ عليهم، وإنما امتدت لجمع غفير اعتمد عليهم في جَمْع كلّ ما تعلق بهذه القراءات[١]. وتأتي عملية سرد مصادر القراءة، سواء أخذت عن قراءة معينة، أو من طريق رواة بعينهم، أو مصادر نصيّة لتعضد ثبوت القراءة لدى جمع غفير.

وقد فصّل ابن مجاهد القول وأفاض في ذكر أسانيد قراءة نافع، وابن كثير، وعاصم (ت: ١٢٧) وأبي عمرو، بينما كانت أسانيده أقلّ نسبيًّا في قراءة حمزة والكسائي وابن عامر دون أن يمسّ هذا حجية القراءة وصحتها[٢]، وفضلًا عن ذلك، فكلما وُجِد خلاف وفرق في نقل أحد القرّاء لحرف من الحروف، وجدنا ابن مجاهد يشير إلى هذه الاختلافات في متن الكتاب مع ذكر أسماء الرواة[٣].

وتبرز المسائل المتعلّقة بالنواحي الصوتية وطريقة نطق بعض الكلمات في الجزء الأول من كتاب ابن مجاهد، وعليه فقد ذكر ابن مجاهد اختلاف القراء في فاتحة الكتاب في قوله: ﴿مَٰلِكِ﴾ بإثبات الألف وإسقاطها، فقرأ بعضهم ﴿مَٰلِكِ﴾

(١) ابن مجاهد، كتاب السبعة، ص٨٨- ١٠١.

(٢) هناك أسانيد أخرى لهذه القراءات.

(٣) انظر: أحمد علي إمام، *Variant Readings of the Qur'an: A Critical Study of their Historical and Linguistic Origins* (هرندون، فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٨) ص١٣٥- ١٣٧، وفيه دراسة لأبرز الأسانيد والرواة.

وقرأ الآخرون (مَلِك)، وقرأ البعض (مَلْك) ساكنة اللام، وغيرهم (مِلْك) مكسورة الميم وساكنة اللام؛ وذكر اختلافهم في قوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ في السين والصاد والزاي والإشمام، وفي قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ فقرأ بعضهم بضم الهاء والباقون بكسرها، كما ذكر اختلاف القراء في قوله: ﴿غَيۡرِ﴾ بخفض الراء ونصبها.

وذكر هذه الاختلافات ومنهج ابن مجاهد في الرّبط بينها وبين مواضع أخرى في باقي سور القرآن قد زاد من حجم وأهمية هذه الدراسة، ويتجلَّى هذا أيضًا في تناوله للسّور القرآنية التالية، وقد أفاض القول في بيان الاختلاف في فاتحة الكتاب، حتى إنه تطرق إلى ذكرِ علل هذه القراءات، لكنه سرعان ما يبيّن أنه استطال ذكر العلل بعد هذه السورة وكره أن يثقل الكتاب فأمسك عن ذلك وأخبر بالقراءة مجرّدة[1]، وقبل أن يشرع في الحديث عن سورة البقرة، أفرد الإدغام بالحديث ومنهج القراء السبعة فيه، وتناول أهمية الكناية، والهمز خاصّة في باب المدّ والقصر، والفتح والإمالة، وياءات الإضافة واستعمال القراء السبعة لها، ويأتي كلّ هذا في إطار استعراضه لسورة البقرة[2]، ثم تأتي فصول الكتاب

(١) ابن مجاهد، السبعة، ص١١٢. كان متأخرو النحاة مثل: أبو علي الفارسي، وابن جني، هم من اتجهوا إلى بيان العلل في شرحهم لكتاب السبعة لابن مجاهد.

(٢) ابن مجاهد، السبعة، ص١١٣- ١٣٩. يورد محقق الكتاب عناوين هذه المطالب لكنه يستند في ذلك إلى طريقة المؤلف. ويتضح هذا في سياق مدّ الهمزة وقصرها، وورود الهمزة وتتابعها. انظر تعريف بيير =

التالية لتركّز على اختلافهم في الحركات في بعض الآيات، ولا يخلو الحديث في بعض المواضع من بيان الاختلاف بين القراءات من حيث النواحي الصوتية، ودائمًا ما يشير ابن مجاهد إلى أن هذه الاختلافات موجودة في مصاحفهم[1]، وعلاوة على ذلك فإنّ الكتاب كلّه يقوم على مفهوم أنّ كلّ اختلاف في القراءات له سنده الموثوق.

=

كاتشيا لهذه الكلمات في كتابه *The Monitor, A Dictionary of Arabic Grammatical Terms* (إدنبرة، مطبعة جامعة إدنبرة، ١٩٧٣).

(١) ابن مجاهد، كتاب السبعة، ص٤٨. انظر الإشارات التالية إلى هذه المصاحف في صفحة: ١٠٨، ٢٣٥، ٢٤٥، ٢٨٤، ٣١٨، ٣٩٠، ٤٢٨، ٤٧٣، ٤٧٩، ٤٩٤، ٥٤٢، ٦٢٥، ٦٨٩.

الكتابات المبكرة في القراءات: إسهامات القرّاء والنحاة:

إنّ النزوع لجمع القراءات بدأ في وقتٍ مبكرٍ من تاريخ اللغة العربية وما اتّصل بها من علوم، وقد أسهم القرّاء والنحاة في هذا الفنّ، كلٌّ بطريقته الخاصّة؛ فقامت كتابات القرّاء على مفهوم الإسناد والرواية، في حين ركّزت كتابات النحاة على الاعتبارات والنواحي اللغوية، وإن ارتبط الفريقان بمبدأ الإسناد، ولم يستمر ميل النحاة إلى التكلُّف والتصحيح والموازنة النظرية بلا منازع وإنما قوبل بتمسّك شديد من القرّاء بالمرويات والأسانيد، ومعنى هذا أن كتابات النحاة في القراءات قد تركّزت في بيان العلل والمقاييس عبر التقعيد اللغوي والموازنة، ورغم ذلك كان إسهام النحاة في هذا الفنّ كبيرًا.

وأورد ابن النديم قائمة بالأعمال التي عُنيت بجمع القراءات وإن لم يفرق بين طبيعة المنهج الذي سار عليه مؤلفوها[1]، ومن بين أوائل من كتبوا في علم القراءات، هارون بن موسى، وقد عاصر سيبويه (ت: ١٧٧)، وروى اللغوي البصري أبو حاتم السجستاني (ت: ٢٥٥) الذي صنّف هو الآخر كتابًا في القراءات: أن هارون هو أوّل من جمع وجوه القراءات وتتبّع أسانيد الشواذ وغرائبها[2]. وسار على هذا النهج في التصنيف والتأليف يعقوب الحضرمي

(١) ابن النديم، الفهرست، ص٣٨. هناك كتب أخرى ذكرها ابن النديم في حديثه عن تراجم الأشخاص.

(٢) ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص٣٤٨. وقد تحدثت باستفاضة عن هارون ويعقوب في مجلة الدراسات القرآنية، المجلد الخامس، العدد الثاني.

البصري (١١٧-٢٠٥)، وألَّف كتاب الجامع الذي فصّل فيه الكلام في وجوه القراءات وتتبّع كلّ حرف ونسبه إلى أول مَن قرأ به[١].

ورأى بعض اللغويين أن يصرفوا اهتمامهم إلى قراءة بعينها؛ لذا نجد اللغوي البصري أبا زيد الأنصاري (ت: ٢١٥) يخصّص كتابًا للانتصار لقراءة أبي عمرو بن العلاء[٢]، وقد أشار المصنف الأندلسي صاحب كتاب طبقات النحاة، أبو بكر الزبيدي (٣٠٨-٣٧٩) إلى كتاب أبي حاتم في القراءات وذكر عنوانه، وأنه اشتمل على ذِكْر القرّاء والعلماء[٣]، واعتمد الزبيدي على هذا العمل في إيراد نماذج للقراءات التي أشار إليها النحاة، وروى ابن جني أنّ كتاب أبي حاتم كان من بين الكتب التي اعتمد عليها في تصنيف كتابه الشهير الموسوم بكتاب المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها[٤]، بل إنّ ابن مجاهد نفسه

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٥، ص٦٤٤.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص٦٠.

(٣) محمد بن الحسن الزبيدي، طبقات النحويين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٣)، ص ٧٣. يبيّن مكي بن أبي طالب في الإبانة عن معاني القراءات، تحقيق: عبد الفتاح شلبي (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٠) أن حمزة والكسائي وابن عامر أُسقطوا من كتاب أبي حاتم في القراءات، ويمكن الوقوف على سبب بغضه حمزة في مقالة مصطفى شاه في مجلة الدراسات القرآنية، المجلد الخامس، العدد الأول، ص٧٠.

(٤) انظر: Gotthelf Bergstrasser, *Nichtkanonische Koranlesarten*, p. ١٨. يشير أيضًا إلى القرطبي والفرّاء والزجّاج وأبي علي الفارسي، وقد استفاد من مصنفاتهم في القراءات.

يقرّر أنه استطاع التثبّت من بعض حروف قراءة نافع عن طريق كتاب رواه محمد ابن سعد (ت: ٢٣٠) صاحب الطبقات الكبرى، عن شيخه محمد بن عمر الواقدي (ت: ٢٠٨)، وقد صنّف الواقدي كتاب القراءات[١].

هذا، وقد أشار ابن مقسم في معرض دفاعه المستميت عن منهجه في القراءات إلى ثلاثة علماء ممن صنفوا في القراءات، وهم: خلف بن هشام البزار، ومحمد بن سعدان، وأبو عبيد القاسم بن سلام[٢]، وعُرفوا جميعًا برسوخهم في علوم اللغة وتبحّرهم فيها؛ مما يفسّر الاتجاه الذي سلكوه في كتاباتهم. وكان خلف مقرئًا كوفيًّا خبيرًا، له اختياره في القراءة اعتمد فيه على قراءة حمزة بن حبيب، وذكر ابن أشته الأصفهاني -أحد الأعلام في تاريخ المصاحف- أنّ خلف لزم مذهب حمزة في القراءات، وإنْ خالفه في مائة وعشرين حرفًا، سار فيها على قراءة نافع من طريق إسحاق المسيبي (ت: ٢٠٦)[٣]. ومن تلاميذه في القراءات الكوفي سلمة بن عاصم (ت: ٢٧٠) ومحمد بن الجهم صاحبا الفرّاء. نشأ خلف في بغداد ثم ارتحل إلى الكوفة للقراءة على أبي بكر بن عياش (٩٥-١٩٣)، وتذكر كتبُ السِّيَر والتراجم التي تأتي على ذكر خلف أنه

(١) ابن مجاهد، كتاب السبعة، ص٩٠. وانظر: ابن النديم، الفهرست، ص٣٨. روى ابن سعد كثيرًا مما عند الواقدي. انظر: الفهرست، ص١١١- ١١٢.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص٣٨.

(٣) ابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص٢٧٢- ٢٧٣.

اعتمد في قراءته على مجموعة من الأسانيد المعتمدة، ونظرًا لرسوخ قدمه في القراءات اعتبر العلماء قراءته واحدة من القراءات العشر الكبرى[1].

أشار ابن الجزري إلى جهود محمد بن سعدان في جمع القراءات من خلال كتابه الجامع والمجرد[2]، وهي قراءات لا تشذّ عن المشهور، وعليه فإنّ اختياره يأتي ضمن ما تواتر من القراءات ولاقَى القبول، وقد أخذ العلم عن شيوخ من البصريين والكوفيين، ويذكر ياقوت أخبارًا متضاربة عن ابن سعدان، فيقول: وكان يقرأ بقراءة حمزة ثم اختار لنفسه ففسد عليه الأصل والفرع، إلا أنه كان نحويًّا[3]، ثم يذكر بعد ذلك أنه نظر في الاختلاف، وكان ذا علم بالعربية. ومَيْلُ أشخاص مثل ابن مقسم وابن سعدان إلى التأكيد على الاعتبارات اللغوية هو نتيجة طبيعية لهيمنة النحاة وأثرهم في علم القراءات، ومن المحتمل أن يكون هذا هو السبب الذي دفع ابن مقسم إلى الإشارة إلى هذه الشخصية في دفاعه عن منهجه في اختيار بعض الحروف في القراءة، رغم أنه -على ما يبدو- قد أبعد النّجعة في تفسير طبيعة اختيار خلف.

---

(١) ابن الجزري، النشر، ج١، ص١٨٨- ١٩١؛ ويشار إليه كأحد القراء العشرة، وسوف نوضح فيما يلي كيف أنّ النقّاش يذكر (خلَف) ضمن القراءات الثمان. ابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص٢٧٢- ٢٧٣، والقسطلاني، لطائف الإشارات، ج١، ص٩٨.

(٢) ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص١٤٣.

(٣) ياقوت، معجم الأدباء، ج٥، ص٣٤٤.

وعلاوة على ذلك فإنّ رأي جيفري في الاختيار وأنّه تصور مستقلّ بشأن إعجام الكلام لتتسنى تلاوته بشكلٍ صحيحٍ، يتجاهل -على ما يبدو- حقيقة اقتصار هذا على الاختيار من بين قراءات معروفة سلفًا[١].

كثيرًا ما يتردّد ذكر أبي عبيد القاسم بن سلام (١٥٧-٢٢٤) في سياق علم القراءات التراثي، وقد صنّف مثل خلف كتاب القراءات، إلا أنّ كتابه دائمًا ما تتمّ الإشارة إليه ويكثر الاستشهاد به، وهو الأمر الذي يتيح لنا تقييم المنهج الذي سار عليه مؤلفه، وقد أخذ أبو عبيد العلم عن مجموعة من أئمة الكوفة الأوائل ومن بينهم سُليم (١٣٠-١٨٨) والكسائي (١٢٩-١٨٩) ويحيى بن آدم (ت: ٢٠٣) وابن عياش[٢]. وكان أبو عبيد من الموالي، وله اختياره في القراءة بما يتفق مع العربية والآثار كما بيّن ابن الجزري[٣]، ولم يتسنّ لكلّ نحوي أن يحقّق هذا التوازن الدقيق، وقيل: إنه جمع خمسًا وعشرين قراءة، وذكر الذهبي (ت: ٧٤٨) أنه لم يصنّف أحد

(١) جيفري، The Qur'an Readings of Ibn Miqsam، ص٤. لاحظ السياق الذي ورد اسمه فيه في كتاب السبعة ص٣١٤، ٤١٦، ٤٦٣، ٤٥٥، ٥٥٢.

(٢) ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص١٧-١٨.

(٣) ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص١٨، وانظر: ابن الجزري، النشر، ج١، ص٣٤.

قبله مثله[1]. كما أنّ ابن مجاهد قد استعان بما كتبه؛ حيث أورد في كتاب السبعة شيئًا من ذلك[2].

ويصف العالم النحوي البصري أبو جعفر النحاس (ت: ٣٣٨) كتاب القراءات بأنه أصل من الأصول، وكثيرًا ما يستشهد به في كتابه الشهير (إعراب القرآن)[3]. وما أورده النحاس في كتابه من أقوال اقتبسها من أبي عبيد خيرُ دليل على عناية أبي عبيد بالعربية واعتبارها عاملًا حاسمًا في اختياره في القراءات، ومع ذلك فإنّ كون أبي عبيد قد استطاع أن يحقّق انسجامًا نسبيًّا بين القراءات وقواعد العربية -كما يبيّن ابن الجزري- قد خفّف من وطأة الأمر؛ وبرغم ذلك نجد النحاس يعيب على أبي عبيد استخدامه القياس في اختيار قراءة أبي عمرو في قوله: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾[٢٣] في سورة الحديد، وليس محلّ الإشكال في القراءة فهي ثابتة وإنما معيار الاختيار وسياقه؛ ويذكر النحاس أنّ هذه القراءة هي اختيار أبي عبيد، واحتجّ أنه لو ﴿ءَاتَىٰكُمۡ﴾لكان الأول (أفاتكم). ويرى

(١) الذهبي، معرفة القراء الكبار، ج١، ص٧٢.

(٢) ابن مجاهد، كتاب السبعة، ص٣٩٦.

(٣) أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، إعراب القرآن، زهير غازي زاهد، الإصدار الثالث (٥ أجزاء، بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٨)، ج٣، ص٢٠٥، وانظر ص١٦٦.

أن هذا الاحتجاج مردود عليه من العلماء وأهل النظر؛ لأن القرآن لا يُحْمَل على المقاييس وإنما يُحمل بما تؤديه الجماعة[1].

وينبغي أن نلاحظ أنّ النحّاس نفسه يسير على منوالٍ شبيه في تقييم القراءات؛ فإنّ اختيار أبي عبيد لقراءة أبي عمرو قد استند إلى نوع من الانسجام الإيقاعي بين آيتين.

كما يتحدث النحاس عن اختيار أبي عبيد لقراءة ابن مسعود: (فناداه الملائكة) [٣٩] في سورة آل عمران باختلاف الضمير بين الفعل والفاعل بدلًا من: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وينقل النحاس كلام أبي عبيد في تفسير اختياره هذا وأن ابن مسعود كان يُذَكِّر الملائكة في كلّ القرآن؛ وأنه يختار ذلك خلافًا على المشركين؛ لأنهم قالوا الملائكة بنات الله، ويرى النحّاس أنّ هذا احتجاج لا يحصل منه شيء، وأنّ القرآن أجاب على زعمهم هذا بطريقة أخرى، ومع ذلك فهذا لم يمنع النحاس من قبول كلا القراءتين[2].

وفي مثال آخر يورد النحاس اقتباسًا جديدًا يعترض فيه أبو عبيد على قراءة: (ليهب) بدلًا من: ﴿لِأَهَبَ﴾ في الآية التاسعة عشرة من سورة مريم التي قرأ بها

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٣٦٥.
(٢) نفس المرجع، ج١، ص٣٧٣.

البصري أبو عمرو بن العلاء وخالف المصاحف كلّها، ويقول أبو عبيد: إنه لو جاز أن يُغَيَّر حرف من المصحف للرأي لجاز في غيره، وفي هذا تحويل القرآن حتى لا يُعْرَف المنزَّل منه من غيره[1].

وهذا القول يعكس الروح التي سادت علم القراءات القديم ومدى الحرص على التقيّد بالروايات والأسانيد، وقد جسّد عمل أبي عبيد هذه الروح بوضوح، وإذا نظرنا إلى طريقة الاختيار والأسلوب الذي سار عليه أبو عبيد، فمن المستغرب أن يستعين به ابن مقسم في الدفاع عن اختياره في القراءة.

هناك علماء آخرون تُنسب إليهم بعض الكتب التي عُنيت بجَمْع القراءات، من بينهم الكوفيون: يحيى بن آدم، وحفص بن عمر الدوري (١٥٠-٢٤٦)، وأحمد بن جبير (ت: ٢٥٨)؛ فقد صنّفوا كُتبًا في القراءات القرآنية على منهج الكوفيين والبصريين وأهل الحجاز.

ويعدّ يحيى من أبرز المصادر في القراءات الكوفية المبكرة؛ إِذْ أخذ العلم عن شيخه أبي بكر بن عياش، ومن خلاله جَمَع قراءة عاصم بن أبي النجود كما يحكي[1].

(١) نفس المرجع، ج٣، ص١٠. وانظر: إسماعيل بن خلف، كتاب العنوان في القراءات السبع، تحقيق: زهير زاهد وخليل العطية (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٥)، ص١٢٦، وفيه روى ورش نفس القراءة عن نافع. انظر: مجاهد، كتاب السبع، ص٤٠٨.

أما حفص بن عمر الدوري فقد وصفه ابن الجزري بأنه أول مَن جمَع القراءات[٢]، ودائمًا ما يشار إليه بالنحوي، قال أبو علي الأهوازي (٣٦٢-٤٤٦) صاحب كتاب الإقناع، وهو أحد المصنفات المهمّة في القراءات الإحدى عشرة: رحل الدوري في طلب القراءات وقرأ بسائر الحروف السبعة وبالشواذ، وقد سمع الدوري من الشواذّ شيئًا كثيرًا وبها اشتهر[٣].

أما أحمد بن جبير فكان من تلاميذ الكسائي، لكنه طلب العلم كذلك على يد آخرين من أئمة الكوفة[٤]، وارتحل إلى الحجاز ومصر والشام قبل أن يستقر به المقام في أنطاكية، صنّف كتابًا جمع فيه قراءات خمسة علماء، من خمسة أمصار[٥]، وتذكر كُتُب السِّيَر والتراجم أنه كان متمسكًا بالقواعد المقررة في القراءات القرآنية، وروي عنه أنه كره استعمال الخضرة التي تكون في

=

(١) ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص٣٦٣- ٣٦٤.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٥٥. انظر أيضًا: الذهبي، معرفة، ج١، ص١٥٧.

(٣) ابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص٢٥٥. نقل ياقوت عن الأهوازي في معجم الأدباء، ج٥، ص٢٤٥. وأورد ابن الجزري خبره في طبقات القراء، في المجلد الأول، ص٢٢٠.

(٤) ابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص٤٢- ٤٣. انظر: ابن الجزري، النشر، ج١، ص٣٤.

(٥) ابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص٤٢- ٤٣. يروي عنه ابن مجاهد في كتاب السبعة، ص٢٦٨، ٣٢٧.

المصاحف ينقطون بها الحروف الشواذّ؛ وذلك لأنه يكون فيها حروف لم يقرأ بها أحد[١].

يذكر ابن الجزري أنّ القاضي البصري إسماعيل بن إسحاق (١٩٩-٢٨٢) صنّف كتابًا جمع فيه قراءات عشرين إمامًا[٢]، وقد روى ابن مجاهد الحروف سماعًا عنه[٣]، ويرى ابن الجزري أنّ القراءات التي جمعها شملت السبع التي

(١) يتحدث كذلك عن الأخطاء والأغلاط التي نجمت عن هذا. انظر: أبو عمرو بن سعيد الداني، المحكم في نقط المصاحف، تحقيق: عزت حسن، الطبعة الثانية (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦)، ص٢٠. وانظر أيضًا: ياسين دتون، مقالة بعنوان:
'Red Dots, Green Dots, Yellow Dots and Blue: Some Reflections on the Vocalisation of Early Qur'anic manuscript الجزء الأول، مجلة الدراسات القرآنية، العدد ١ لسنة (١٩٩٩) ص١١٥- ١٤٠، والجزء الثاني في المجلد الثاني العدد الأول لسنة ٢٠٠٠ ص١- ٢٤، ويلاحظ أنه في صفحة ١١٦، وما بعدها في الجزء الأول وصفحة ١٢، وما بعدها في الجزء الثاني يورد العديد من النماذج ويؤكّد على التصورات الغربية الخاطئة حول دورها، ويرى أنها استخدمت لهمزة الوقف والقراءات الأخرى.

(٢) ابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص١٦٢.

(٣) ابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص١٦٢. انظر أيضًا صفحة١٤٠ وفيها أن ابن مجاهد روى عنه الحروف سماعًا. وقد سُئل القاضي: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على أهل القرآن؟ فأجاب: قال الله -عز وجل- في أهل التوراة: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[المائدة: ٤٤] فوكل الحفظ إليهم؛ فجاز التبديل عليهم، وقال في القرآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩] فلم يجز التبديل عليه. (انظر ص١٦٢).

اختارها ابن مجاهد في كتابه[١]، وذكر ياقوت أنّ العلماء شهدوا لإسماعيل بن إسحاق بالفضل فيما كتب، وممن شهد له بذلك ابن مجاهد وغيره من كبار العلماء[٢].

وقد شهد جَمْع القراءات وروايتها زخمًا ملحوظًا، فصنّف محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠) كتابَين في القراءات، الأول: هو الفصل بين القرَّاء، أبان فيه الخلاف في الحروف بين القرَّاء، ولم يقتصر على ذكر أسماء كبار القراء في المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وغيرها من الأمصار، بل بيّن وجوه الاختلاف بين القراءات وموقع ذلك من قواعد اللغة العربية[٣]، وللأسف لم يصلنا هذا الكتاب كما هو حال العديد من الكتب الأخرى في هذا الفنّ، لكن مادته التي اشتمل عليها مبثوثة في تفسير الطبري للقرآن.

وقد أشار ياقوت إلى حسن تلقي أهل العلم لكتابه في القراءات، فأورد كلامًا ذكر فيه ابن مجاهد فضل كتابه في القراءات وقال: إلا أني وجدتُ فيه غلطًا في حرف لحمزة رغم ما عُرف عن الطبري بقراءته لحمزة وتجويده له، وذكر ابن مجاهد أن العلّة في هذا الغلط أبو عبيد القاسم بن سلام؛ لأنه بنى كتابه على

(١) ابن الجزري، النشر، ج١، ص٣٤.

(٢) ياقوت، معجم الأدباء، ج٢، ص١٩٥.

(٣) نفس المرجع، ج٥، ص٢٥٨- ٢٩٠. وانظر: ابن الجزري، النشر، ج١، ص٣٤.

كتاب أبي عبيد، فأغفل أبو عبيد هذا الحرف فنقله أبو جعفر على ذلك[١].

وتحدّث الأهوازي عن مصنّف للطبري جمَع فيه القراءات وزعم أنه جاء في ثمانية عشر مجلدًا مكتوبًا بخطٍّ كبيرٍ[٢]، ويروي ابن الجزري في كلامه عن الطبري أنه صنّف كتابًا في القراءات سماه الجامع[٣].

وهناك مصنفات أخرى في القراءات والقرّاء ظهرت في القرن الثالث، فصنّف المكي المتخصص في القراءات إسحاق بن أحمد الخزاعي (ت: ٣٠٨) عددًا من الكتب جمعت أوجه الخلاف والاتفاق في القراءات المكية[٤]. وقد قرأ ابن شنبوذ على إسحاق، وكان من بين من اعتمد عليهم ابن مجاهد في كتاب السبعة[٥]. وكان أبو ربيعة محمد بن إسحاق (ت: ٢٩٤) حجة في القراءة المكية[٦]، صنّف دراسة مستفيضة فصّل فيها قراءة الإمامَين المكيَّيْن: قنبل، والبازي (١٧٠-٢٥٠)، وذكر الذهبي أنه صنّف كتابًا في قراءات ابن كثير[٧].

---

(١) السابق، ج٥، ص٢٥٨- ٢٥٩.

(٢) نفسه، ج٥، ص٢٤٥.

(٣) ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص١٠٦، وينقل عن الداني.

(٤) الذهبي، معرفة، ج١، ص١٨٤. ابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص١٥٦.

(٥) ابن مجاهد، كتاب السبعة، ص٦٥ وما بعدها.

(٦) ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص٩٩.

(٧) الذهبي، معرفة، ج١، ص١٨٥، وُصف قنبل بأنه شيخ القراءات في الحجاز.

وممن صنّف في القراءات أبو بكر محمد بن حسن النقاش (٢٦٦-٣٢٤) وكان من تلاميذ محمد بن إسحاق، وصنف كتابًا أسماه المعجم الكبير في أسماء القراء وقراءاتهم[١]، وذكر ابن النديم أنّه صنّف في قراءة حمزة والكسائي وألَّف كتاب القراءات الثمان، وفيه أضاف قراءة خلَف للقراءات السبع[٢]، ومن هؤلاء أيضًا محمد بن أحمد الداجوني (٢٧٣-٣٢٤) وهو معاصر لابن مجاهد، وكان من بين من عُنوا بجمع القراءات وصنّف فيها[٣].

وتمثّل الاختيارات التي اشتملت عليها هذه المصنفات جزءًا كبيرًا مما دُوّن في علم القراءات، وكانت هناك بالطبع اختيارات لقراءات أخرى أوردها المصنفون في ضوء مبادئ التوثيق والتدوين التي حدّدها الأئمة الأعلام في هذا الميدان، ولعلّ هذا يفسّر لنا سبب استمرار التأليف في عددٍ من القراءات طوال القرن الرابع حتى بعد أن صنّف ابن مجاهد كتاب السبعة، فهذا إبراهيم بن عبد الرزاق الأنطاكي (ت: ٣٣٨)، وأحمد بن نصر الشذائي (ت: ٣٧٣)، وأبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران (ت: ٣٨١)، وعبد المنعم بن غلبون (ت: ٣٨٩)،

(١) ابن النديم، الفهرست، ص٣٦.

(٢) ابن الجزري، طبقات القراء، ج٢، ص١٢٠، انظر: ابن النديم، الفهرست، ص٤٢. ورد باسم (الثمانية) في هذه الطبعة، وهو عنوان بديل لكتاب القراء الثمانية.

(٣) ابن الجزري، النشر، ج١، ص٣٤؛ طبقات القراء، ج٢، ص٧٧، ويشير ابن مجاهد إليه كأحد من روى روى عنهم، كتاب السبعة، ص٢١٥، ٢٦٨.

وولده الطاهر بن أحمد (ت: ٣٩٩)، قد صنفوا كُتبًا جمعت عددًا معينًا من القراءات[١].

وإذا كان الكثير من هذه المصنفات قد أكّد على جمع القراءات وعززه في بعض الحالات بإيراد تحليل نحوي لها، فإنّ عددًا من الكتب التي صنفت في الاحتجاج للقراء (ويشار إليها بكتب الحُجّة) قد انتهجت التفسير النحوي للقراءات وجعلت منه غاية واضحة وهدفًا مقصودًا، وقد اهتمّ النحاة من الكوفيين والبصريين بهذا النّوع في التصنيف، ومن هؤلاء: المبرِّد وثعلب وابن قتيبة وابن كيسان وابن السرّاج ونصر بن علي وابن درستويه وكثير غيرهم. وكثيرًا ما تورِد كتب السِّيَر والتراجم في حديثها عن الكوفيين والبصريين مصنفات في القراءات صنّفها الأئمة الأعلام[٢]، وتذكر كتب الاحتجاج أن

(١) ابن الجزري، النشر، ج١، ص٣٤- ٣٦، وللوقوف على أسماء المصنفين انظر: ص٥٨- ٩٧، ولمعرفة أخبار الأنطاكي انظر: ابن الجزري، طبقات القراء، ج١، ص١٦ وما بعدها، والشذائي انظر المجلد الأول ص١٤٤- ١٤٥؛ ولمعرفة أخبار ابن مهران صاحب كتاب المبسوط في القراءات العشر، وطبقات القراء، انظر المجلد الأول، ص٤٩ وما بعدها. أما ابن غلبون، صاحب كتاب الإرشاد في السبع، فانظر المجلد الأول، ص٤٧٠-٤٧١؛ وصنّف ابنه طاهر كتاب التذكرة في القراءات الثمان، انظر المجلد الأول، ص٣٣٩، والنشر، ج١، ص٧٣ وما بعدها. وانظر مقدمة المحقق لكتاب العنوان، ص١٥- ٢٢.

(٢) انظر مقالاتي في مجلة الدراسات القرآنية، المجلد الخامس، العدد الأول والثاني، وقد تساءل البعلبكي ما إذا كان أناس مثل المبرد قد صنفوا في هذا الموضوع، لكن هذا الرأي تجاهل المنهجية التي سار عليها النحاة. انظر: رمزي البعلبكي، مقالة بعنوان: The Treatment of *qird'dt* by the Second and =

الاتفاق مع أحد وجوه العربية كان عاملًا أساسيًّا في توثيق النصّ القرآني، ولا يُستغرب أن يسلك أئمة النحاة من المتأخرين هذا النهج في عرض آرائهم؛ فقد بات أدب الاحتجاج وسيلة لإظهار دورهم وبسط سلطانهم، ومع ذلك فإنّ هذا الأمر قد ظهر أول ما ظهر في كتب المعاني التي عنيت بتفسير القرآن ويمكن عزوها إلى النحاة.

=

Third Century Grammarians، مجلة *Zeitschrift fur arabische Linguistik*، العدد الخامس عشر لسنة ١٩٨٥، ص١١- ٣٢.

الخاتمة

إنّ الجهود العظيمة التي بُذلت في حفظ القراءات وجمعها على يد القرّاء والنحاة الأوائل تمثّل السياق التاريخي الذي انبثق منه هذا العمل الجليل لابن مجاهد، وقد شكّلت هذه الأعمال المبكّرة إطار عمل واضح سار عليه ابن مجاهد في كتابه، ويأتي كتاب ابن مجاهد ضمن كتب الجمع التي صنّفها القرّاء للتأكيد على سلامة القراءات وضمّنوها القدر القليل من الشروح النحوية، وإنّ أسلافه في هذا المضمار قد حدّدوا قواعد وشروطًا لتحديد الحروف المختلفة ووجوهها الدقيقة، ولم يكن هدف الكُتّاب توحيد القراءات، ولا شك أن فترات التوحيد والتجانس لم تؤثّر على المنهج الذي سار عليه القراء في اختيار القراءات، وقد جذب كتاب ابن مجاهد الأنظار؛ لا لموقف صاحبه من محنة ابن مقسم وابن شنبوذ فقط، وإنما لمكانته في الإقراء والقراءات بين كبار النحاة البصريين والكوفيين، وهذا هو ما أضفى على الكِتاب شهرة وذيوعًا، وجعل العلماء ينبرون لشرحه والدفاع عنه.

ولم يكن كتاب ابن مجاهد مجرد محاولة للحدّ من تفشّي القراءات، وإنما غايته التأكيد على القواعد المقررة التي سار عليها القرّاء، وإقناع النحاة أن ينفقوا طاقتهم الفكرية وخبرتهم في الزَّود ببراعة عن مادة تواترت وحازت على أعلى درجات القبول، بدلًا من الانخراط في جدل نحوي وافتراضات نظرية، وهو الأمر الذي نهضوا له بكلّ إخلاص؛ ولذا وجدنا ابن السرّاج يصرف همته إلى

شرح كتاب السبعة، وكذلك فعل أبو علي الفارسي، ووضع أحد تلاميذ ابن مجاهد، وهو النحوي الكوفي ابن خالويه (ت: ٣٧٠) شرحًا لغويًّا له في كتاب الحُجّة[١]، وصنّف اللغوي الشهير أبو منصور الأزهري (ت: ٣٧٠) كتاب معاني القراءات الذي اعتمد فيه بشكلٍ أساسي على كتاب السبعة في تناوله لهذه القراءات[٢]، وعلاوة على ذلك صرف بعض النحاة أنظارهم إلى شرح كتابٍ آخر لابن مجاهد جمَع فيه القراءات من غير السبعة[٣].

(١) حسين بن أحمد بن خالويه، الحجة في القراءات السبع، تحقيق: عبد العال سالم مكرم (بيروت: دار الشروق، ١٩٧١).

(٢) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، كتاب معاني القراءات، تحقيق: عيد مبارك وعوض القوزي، (٤ مجلدات، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩١)، وقد صنّف القراء المتأخرون مثل مكي بن أبي طالب (ت: ٤٣٧) وأبو عمرو الداني كتبًا عالجت مفهوم القراءات السبع، رغم أن كتاب مكي لا يتجاوز السبع، ومع ذلك فإنّ مكي بن أبي طالب لا يذكر ابن مجاهد في كتابه الشهير (الكشف) سوى في أربعة مواضع فقط.
انظر: مكي بن أبي طالب، كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع، تحقيق: محيي الدين رمضان (مجلدان، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧)، ج١، ص٩٧، ١١٦، ٢٠٤، وكذلك ج٢، ص٧٩؛ ولذا فإن مصطلح القراءات السبع في حدّ ذاته صار موضع اهتمام وتركيز، وصنف الداني رسالة موجزة في القراءات السبع ومن قرأ بها، وذكر راويين لكلّ قراءة: كتاب التيسير في القراءات السبع، تحقيق: أوتو برتزل (إسطنبول، مطبعة الدولة، ١٩٣٠)، ومرة أخرى يرد التعريف بهذه النصوص المتأخرة من خلال القراءات. ويُروى أنّ أبا عمرو الداني اعتمد على كتاب النقّاش السابق ذكره. انظر: مكي، كتاب التيسير، تحقيق: محيي الدين رمضان (الكويت: منشورات معهد المخطوطات العربية، ١٩٨٥).

(٣) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه، مختصر في شواذ القرآن (القاهرة: مكتبة المتنبي، بدون تاريخ)، انظر أيضًا: مصطفى شاه، مجلة الدراسات القرآنية، المجلد الخامس، العدد الثاني، ص٢٣- ٤٥.
=

وقد اتضح بشكلٍ جليّ تمسّك القرّاء بالقواعد المقررة في هذا العلم وتشبثهم بها، وجاءت مساعي ابن مجاهد تبعًا لذلك، بيد أنه ترك لنا تراثًا بقي حاضرًا على مرّ الدهور والأعوام.

=

وانظر: آرثر جون آربري، كتاب البديع لابن خالويه، ضمن Lowinger & Somogyi, Ignaz Goldziher Memorial Volume، ص١٨٣- ١٩٠. وقد أفاد ابن جني في المحتسب من جهود شيخه أبي علي الفارسي في هذا المجال، وتحمّس ابن مجاهد للفارسي.